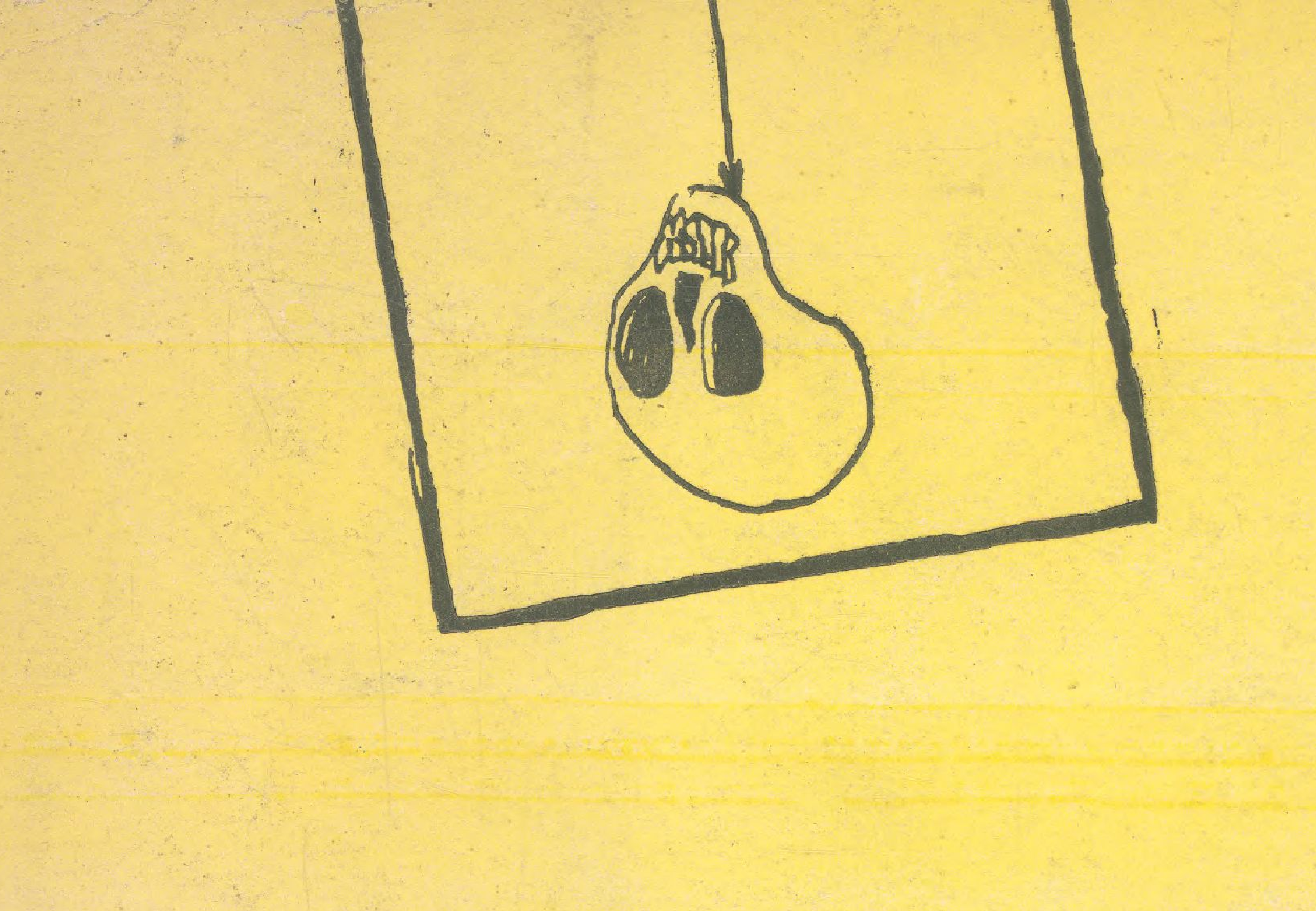




د. نعيم عطية

رواية

المرآة والمصباح

د. نعيم عطية

المرآة والمصباح

« رواية »

١٩٦٦ — ١٩٦٧

إهـــداء

إلى الفنان الراحل رمسيس يونان

أهدى هـــذا العمل

تحية وفاء وتقدير .

الخطر

كل من يعتبر أن الفن مجرد تسجيل ،

كل من لا يؤمن بأهمية الخيال كغذاء روحى ، وكعامل حيوى فى عملية الخلق الأدبى ،

أرجو ألا يقرب هذا العمل .

— ١ —

دخل الأب صائحا هادرا :

— الدماء ! الدماء من جديد ! اللعنة عليكم ، كلكم ، يامن فى هذا البيت !

التفت إلى ابنه :

— أنت ياولد ، أغرب عن وجهى ! أغرب !

ثم استدار إلى ابنته :

— وأنت ، أيتها الفتاة —

سألته مرتعشة الصوت :

— أنا . . يا أبى ؟

— ومن غيرك بقى فى هذا البيت ؟

ارتفع صوته :

— من ؟ !

ثم انخفض كموجة اندفعت إلى صخرة وتكسرت عليها :

— ماتت أمك على فراش المرض . وأختك بذات الداء . أوه ، الجميع يثيرون أعصابى !

وقالت له الابنة شاكية :

— لكننى أرعى البيت ، يا أبى ، منذ أن توفيت أمى .

رد عليها الأب بازدراء :

— البيت كله ! هيه ؟ ! ومن فى هذا البيت سوى هذ الأخ الأعجف . .

ضحك بشدة . ثم استطرد يقول :

ـ كأنه جواد أحاطته العاصفة بأكوام الرمال ؟ !

قالت له مصححة :

ـ وأنت ، يا أبي ـ

قاطعها الأب بحدة :

ـ لست بحاجة إلى من يخدمني . فاهمة ؟ لم أعد من أهل هذه الأرض .

أخفت صوته :

ـ انتشلت من هموم الأرض وأدرانها .

ثم علا صوته :

ـ شكرا وحمداً !

أخفت صوته من جديد :

ـ وجدتُ خلاصي .

زاد صوته خفوتا كما لو كان لا يريد أن يسمعه شخص غريب :

ـ الملائكة تنزل لخدمتي .

تلفت حوله .

تسلل ضوء القمر حائرا من خلف الستائر ، واستقر كغبار متعب في رقع دائرية حول الأرض .

ثم صاح في ابنه بحنق :

ـ هيه ، أنت يامؤمن ، ألا زلت هنا ؟ .. مصيرك جهنم ، وبئس المصير ، يافتى !

ضحك الأب ضحكة هستيرية :

ـــ ألا زلت ترتكب الصغائر ؟

ثم استطرد باشمئزاز :

ـــ الحياة إناء . إناء ياولد . فلا تملأه ماء قذرا .

رد عليه مؤمن باكيا مستنكرا :

ـــ أنا ، يا أبي ؟ ! أنا ؟ ! أنا أصلي دائما ، كما أمرتني .

صوب الأب نظراته الثاقبة ، وقال له بلهجة المحقق الخبيث :

ـــ عندما فتحت الصندوق الذهبي ، ماذا وجدت ؟

صاح فيه الأب بغتة :

ـــ لاتكذب !

أخفض صوته ، وسأله مرة أخرى :

ـــ هيه ، ماذا وجدت ؟

أجابه مؤمن بخوف وبراءة :

ـــ ضفدعة عرجاء . .

ابتلع لعابه ، ومضى قائلا :

ـــ قفزت منه !

ضحك الأب بانتصار :

ـــ أرأيت ؟ عسى أن يُغفر لك ، ياولد . العذاب شيء مهول .

صمت برهة ، ثم استطرد قائلا :

ـــ منذ أن ولدتَ وأنت لاتعجبني . متى ولدتَ ، يافتى ، هيه ؟

دخل السرور قلب مؤمن . انفرجت أساريره :

ـــ عيد ميلادى الشهر القادم ، يأبي .

ــ خيبة الله عليك . أين مكانك فى الأبدية ، هيه ؟ أتعرف ؟

هز الأب رأسه ، وقال :

ــ الأفضل ألا تكون قد ولدت .

تصاعد هدير الأمواج المتكسرة عند الشاطىء ، خافتا فى صوت رتيب متواصل من أسفل عند الساحل البعيد .

اندفع مؤمن يقول مسترحما :

ــ لم أقترف ذنبا ، يا أبى . لم أغمز بالعين . أقسم لك انى لم أقترف ذنبا . لم أكدر أحداً . لم أعرف مالا يجب أن يُعرف . لم أكن فظا . لم أمتدح نفسى قط .

صرخ الأب بجنون :

ــ خسئت ! كى تكون إنسانا لا بد أن تقتل . كى تكون إنسانا لابد أن تُقتل . قاتل أو مقتول أنت .

مضى مؤمن فى استرحامه :

ــ لم أكن فظا . لم أكدر أحدا .

نظر إليه الأب باحتقار :

ــ ولد كافر شرير . أقول لك . سامع ؟

أجابه مؤمن بصوت يرتعش خوفا :

ــ سامع ، يا أبى ! سامع !

ضاقت عينا الأب . امتلأت غموضا . قال بصوته كفحيح الأفعى :

ــ وإلا سيقطعون جسدك إربا إربا .

مد الأب ذراعه نحو وجه ابنه ، وتوترت أصابعه . بدت أظافره صفراء ، وقد علقت بها الأوساخ :

ـــ سيقطعون يديك .

حاول الإطباق على عنق ابنه :

ـــ ويدقون عنقك .

راوغه مؤمن لاهثا :

ـــ هكذا !

أتى الأب بحركة عنيفة تدل على دق العنق .

كررها بشهوة وتلذذ :

ـــ هكذا !

خر الإبن راكعا على الأرض ، مائلا إلى الوراء فى ذعر ، رافعا ذراعيه ، مدافعا بها عن عنقه وعينيه .

تراجع الأب مبتعدا عنه خطوتين .

أشار إلى بطنه قائلا :

ـــ وينزعون أحشائك .

ثم طوح بذراعه فوق رأسه ملقيا بشيء وهمى :

ـــ ويلقون بها إلى النار .

تهدج صدره :

ـــ الجحيم شيء مريع ، ياولد !

صرخ فى ابنه ملوحا بقبضتيه :

ـــ سامع ؟ !

ارتعد مؤمن خوفا :

ـــ سامع ، يا أبى ! سامع !

عاد الأب إلى هدوئه . التفت إلى ابنته :

ــ وأنت يا نوارة ، أيتها البنت الملعونة ، أقول لك إنى خارج ، ولن أعود للغداء .

ثم صاح فى وجهها :

ــ فاهمــــة ؟ !

ثم قال لها فى هدوء :

ــ سأعود ليلا . عليك أن تظلى ساهرة . أوقدى القنديل ، فى انتظارى . أوقدى القنديل كعذراء تنتظر مقدم العريس .

صاح :

ــ فاهمة ؟ !

أومأت نوارة برأسها . قالت بلهجة مؤكدة :

ــ أجل يا أبى . كقط ينتظر عودة سيده .

لمعت عينا الأب بالرضا :

ــ تماما .

لوح بأصبعه لها :

ــ حذار أن يغمض لك جفن .

خرج الأب .

سمعت خطواته تنزل السلم .

ابتعدت على صخر الطريق .

تلاشت .

— ٢ —

خيم الصمت برهة على الغرفة .

تنهدت نوارة بارتياح ، كما لو كان قد انزاح عن صدرها كابوس ثقيل .

— آه ، رحل عنا ، أخيراً .

ابتلع مؤمن لعابه . قال مصدقاً :

— ياله من أب !

— لم يكن هكذا عندما كان . . .

ذابت الجملة على لسانها ، واستطرد مؤمن يقول :

— لكن منذ أن انتابته اللوثة وهو يعذبنا .

— ويضطهدنا .

— ويثير الرعب فى قلوبنا .

هزت نوارة رأسها ، وقالت بإشفاق :

— مسكين . لازالت أمنا تغلق عليه الباب بالمفتاح . كان الله فى عونه .

— وفى عوننا أيضا . ماذنبنا نحن إذا كانت أمنا ألقت بالمفتاح فى اليم ؟

تصاعد صوت الريح فى الخلاء .

التفتت نوارة نحو الباب الذى خرج منه الأب ، وقالت :

— مسكين هذا الرجل . عرافة تنبأت له بأن ابنة سيقتله .

رد مؤمن مستنكراً :

— ابن يقتل أباه ؟ !

قالت نوارة ، كما إذا كان الأمر بدهياً :

ـــ وابنك سيقتلك .

أنت الريح عند اصطدامها بزوايا البيت القديم العالية .

مضى مؤمن يقول بصوت مرتجف :

ـــ ماذا جنينا ؟ الرعدة الدفينة تسرى فى عروقى ليل نهـــار . تصورى ، يا أختاه ، إنى أنهض كل ليلة مذعورا . يخيل إلى أن الغرفة امتلأت بزبانية الجحيم ، يحدقون إلى ويقهقهون . ثم يغرسون فى جنبى وصدرى حرابهم الملتهبة .

ـــ إنه كابوس . هون عليك ، يامؤمن . هون عليك .

اقتربت نوارة منه . ابتسمت . أخذت يده ، وقالت :

ـــ تعال نجلس قليلا .

جلسا على الأرض جنبا إلى جنب . خيم الصمت برهة . مسح مؤمن وجهه بيده ، كما لو كان يزيح من أمامه منظرا كريها .

ضحكت نوارة ضحكة رقيقة :

ـــ أتذكر يامؤمن ، عندما دفعت جدك فوقع فى صفيحة القمامة ؟

هز مؤمن رأسه :

ـــ كنت صغيراً . طلبت منه قرشا رفض .

صاحت فيه نوارة :

ـــ يجب أن يقتلوك من أجل هذا !

أخفض مؤمن بصره .

التهب صوته بالندم والحسرة :

ــ أعرف من أجل هذا سأُعلَّقُ !

رفع عينيه إلى أخته :

ــ وأنت أتذكرين جدتنا ؟

صفقت نوارة جذلا :

ــ أجل ، أجل ، وضعناها فى صندوق زجاجى .

ــ ومع ذلك مضت تبتسم لنا فى مرقدها ، وتقول : سيأتى دوركم عندما يضعكم أحفادكم فى توابيت . وصحت أنت : لم تعد هناك توابيت . هذا آخر صندوق زجاجى .

شحب وجه نوارة .

غلبها حزن فجائى .

راحت تستعيد بقايا الذكرى القديمة .

خرجت الكلمات من شفتيها ، كما لو كانت تتمتم بها نائمة :

ــ ومضت جـــدتى ، من خلف الزجاج ، تبتسم وهى تقول : إذن ، سيلقون بجثثكم على قارعة الطريق لينهشها الدجاج .

غرقت نوارة فى الصمت برهة . الوجود يدور ، والذكريات تمضى كسفين بين الموج على حين النعاس فى الأعماق يبقى .

تعالى صوت مؤمن فى السكون مهيباً ، كمن يدلى بنبأ لم يُسمع له مثيل :

ــ أتعرفين ، ياأختاه ؟ بالأمس رأيت عجوزا يدفن طفلا ، ويتمتم بأدعية حمقاء . . والجثمان المرمى يغيب فى التراب .

انفجر فى ضحك هستيرى .

سادت لحظة من السكون الثقيل .

تمطى .

وقال متثائباً :

– تُرى ، كم الساعة الآن ؟

أجابت نوارة :

– ساعة الحائط تدور بلا عقارب ، وقد حط عليها عصفور ميت .

تضايق مؤمن :

– الساعات تنزلق كالشبكة فى شباك الصيادين .

قالت نوارة بحسرة :

– يا إلهى كم تمر الأيام سريعاً . هاقد أصبحنا فى السبعين ، ولم نستمتع بحياتنا .

تثاءب مؤمن وتمال :

– متى أخرج من هذه الغرفة ؟ قضبان نوافذها عظام نخرة ، وحيطانها من اللحم المقوى . يالله متى أخرج ؟!

نهضت نوارة .

كانت الغرفة ذات باب واحد ، وعدد لايحصى من النوافذ ، كما لو كان قد تجمعت على حوائطها نوافذ الدنيا كلها . بعضها عال وبعضها منخفض . بعضها مستطيل ، وبعضها مربع ، والبعض الآخر فى شكل دائرة .

مضت إلى السلم الخشبى المسند إلى الحائط ، حملته وأسندته إلى الحائط الخلفى .

صعدت إلى الكوة العليا .

ظللت جبينها بيدها ، ونظرت إلى بعيد .

مضت برهة .

داعبت النسمات خصلات من شعرها الناعم الطويل .

صاحت فرحة :

— مؤمن ، إنه الفجر ! انهض . أشرقت السماء ، وما كنت أعتقد أنها ستشرق !

نهض مؤمن شارد النظرة .

مضت الأخت جذلة :

— بادر بالخروج ، فمن يدرى كم من يوم سيطلع من جديد ؟!

أحكم مؤمن إقفال سترته :

— إنى خارج .

التفتت إليه نوارة ، وقالت له كمن تباركه من عليائها :

— خض في المطر والضباب والعواصف . دع الرياح تذرو الرمال في وجهك وذق رذاذ الموج المتطاير على شفتيك .

رفع مؤمن إليها عينيه ، وقال :

— أريد أن أجوس خلال المقابر ، تحت جنح الظلام . أريد أن أدخل قاعات التعذيب لحظات الحساب . أريد أن أدخل غرف العمليات وأشم رائحة المورفين . فإذا ارتعدت وصرخت دخل قلبي الأمان . أما إذا . . أما إذا . .

تردد عن إكمال جملته ، كمن يخشى بلوغ الختام .

نزلت إليه نوارة .

أمسكت بذراعه .

وربتت على كتفه مطمئنة :

— اغرق نفسك فى الطبيعة . تأمل كيف تتكون البراعم . كيف تفتح الفراشة جناحيها . شاهد الطبيعة عن كثب . ودع أمنا الرؤوم تضمك إلى صدرها الشائك حتى تصبح فى ثراتها وحركتها ومضائها .

قال مؤمن بحماسة :

— إنى راحل . الأشواك على الحدود مثل المخالب، لكن الخريطة لا زالت فى جيبى . معالمها لم تنطمس ، والسماء ساطعة النجوم ...

تنهد بلهفة :

— وعبير البرتقال عبر الأشواك لا يقاوم .

صحبت نوارة أخاها إلى الباب ، ومضت تسدى له النصح :

— وإذا تبعتك امرأة شعثاء الشعر عليلة ، لا تلق بالا إليها . إنها حزينة .

غالبت نوارة دموعها ، وأردفت بصوت كسير :

— والأسى الذى يمزق قلبها لن يُسمع له أنين .

خرج الأخ .

واصلت نوارة كلامها إليه وهو يبتعد :

— امض إلى الصخرة الحمراء . لا تصرخ من القيظ أو من البرد، ولا حتى من العطش . لا تشكُ . كن مثل الموج الذى يقبل الريح والمطر . يقبل الليل والشمس دون أن يتغير مثل كل ما يلحقه التغيير والتلف .

لوحت له مودعة .

أرسلت إليه قبلة على أطراف أصابعها ، وهو يغيب عن أنظارها .

دخلت .

أغلقت الباب من خلفها .
جلست مسندة ظهرها إلى يدها .
استغرقت فى الذكريات ، وقد ارتسم على شفتيها طيف ابتسامة .

— ٣ —

ما من أحد يدرى كم من الوقت مضى . على أن الأضـــواء فى الغرفة تغيرت ، فقد انقضى زمن طويل .
جلست نوارة مسندة ذقنها إلى يدها .
انسكب على شعرها ضوء بنفسجى .
كانت تصغى إلى صوتها يهمس إليها فى أعماقها . كان يعلو ويهبط أحياناً مثل عصفور الجنة يسبح فى الفضاء ، ويتلبد الصوت أحياناً مفعما بالكآبة وبروح خفية ، خيل إليها أنها ترى مؤمن من بعيد ، فهمست إليه قائلة :
— تغيرنا كثيراً . عندما تعود لن تعرفنا . الأشجار قطّعناها ، وغرزنا مكانها أعمدة . النوافذ سددناها ، فما عدنا ننظر إلى النجيمات فى السماء الوضيئة .
دخلت الخادمة العجوز .
لم تشعر نوارة بها .
مضت مستغرقة فى وهمها :
— والحديقة . أتذكر الحديقة ؟ عندما تعود لن تعرفها . أرسينا فيها حوائط تحوطنا وأسواراً تخفينا وتحمينا . وما الجدوى من الحديقة ، وما عدنا نزرع الخضر ، وما عادت البلابل تغرد على أغصاننا ، ولا الفراشات تحط على زهورنا ، وما عدنا نقوى حتى على استنشاق نسمة نقية ؟ !

لم تلبث نوارة أن تنبهت الى وجود حليمة فى الغرفة .
أفاقت من شرودها .
ابتسمت لها ابتسامة مبتسرة .
ثم نهضت كما لو كانت قد تذكرت أمرا كانت قد نسيته .
مضت إلى النافذة ترافقها الخادمة العجوز .
أخذت تسترق منها النظر .
بعد برهة لمحت فى الطريق شبح رجل كان يروح ويجىء عند السور الخارجى قرب البوابة الشرقية .
أجفلت وعلاها الاضطراب .
مالت بسرعة الى حليمة ، وأشارت هامسة بصوت مبحوح :
— ها هو ! أترينه ؟ ! يحوم حول البيت ، يا حليمة ! هو ذا صاحب الأحلام قادم !
مدت الخادمة عنقها ، وشحذت عينيها الكليلتين :
— أين ، يا سيدتى ؟ خيبة الله على عينى . ما عادتا تبصران .
أشارت نوارة إلى الخارج :
— هناك ، خلف الأعمدة . ها هو يرفع وجهه نحو نافذتنا .
ابتعدت نوارة عن النافذة بسرعة ، والتصقت بالحائط :
— أخشى أن يرانى .
أخفضت ناظريها :
— انى خجلى .
قالت لها الخادمة العجوز :

— هذا الفتى بدل أحوالك ، هيه ! ظهر لك بمظهر يختلف عن جوهره .
تأملت نوارة ملياً ، وأردفت :
— تبدين شاحبة منذ أن عرفته . وغاصت الابتسامة عن شفتيك .
باختصار ، خدعك . ربما عن غير عمد .
رفعت نوارة راحتها إلى خدها :
— كنتُ شاحبة ، وعبوساً ، دائماً ، يا حليمة .
قالت الخادمة العجوز مداعبة :
— هذا شأننا دائماً ، نحن الفتيات . اذكر عندما اصطفني رئيس الخدم . . .
— لستُ جميلة ، وتعديتُ سن الشباب . ماذا كنتِ تريدينني أن أفعل تحت سقف هذا البيت ؟ أن اكرس حياتي لتربية القطط والببغاوات ، ام اجمع طوابع البريد ، ام اقتل وقتي بأشغال الإبرة ؟
اطلت نوارة بحذر من النافذة ، ثم تراجعت مسرعة . التصقت بالحائط منزعجة :
— ها هو يتجه نحو الباب ، يا حليمة . يبدو انه تغلب على تردده .
ضحكت الخادمة ضحكة قصيرة :
— لم لا يفعل ؟ هل سيجد عروساً مثلك ، يا سيدتي الصغيرة ؟ كم كنت جميلة وانت تلمعين وتتلوين ساعة موتك .
استبد القلق بنوارة ، واختلط قلقها بلهفة الصبايا الى مقدم العريس :
— اود ان يقفل راجعاً . كيف سيقابل ابي ؟ وماذا سيقول ؟
فرت مبتعدة عن النافذة ، كما لو كانت تريد الاختفاء .

أرهفت الخادمة العجوز سمعها ، وقالت لسيدتها :

ـــ صمتا . إنى أسمع صوتا .

أطلت من النافذة :

ـــ ثمة شبح .

أنعمت النظر برهة . ثم أقفلت راجعة إلى نوارة :

ـــ أخطأنا الظن ليس هو .

اتجهت إليها نوارة بكل مشاعرها :

ـــ أهو مؤمن ؟

ـــ بل أبوك ، سيدى قادم .

دهشت نوارة :

ـــ كيف لم نره ؟ ! ربما أتى من الباب الخلفى ؟ !

ـــ هيا ، ياسيدتى الصغيرة ، اصلحى من هيئتك قليلا .

اقتربت العجوز من نوارة . رتبت هندامها . وأردفت تقول :

ـــ حتى لاينزعج .

مضت نوارة فى دهشتها تحدث نفسها :

ـــ عجبا ، كيف لم يلتقيا بالخارج ؟ ربما سيلتقيان على السلم .

ـــ كلا ، كلا . ما أن يرى أباك حتى يتبخر . كل الناس تخشاه . وما أن تطأ قدمه عتبة البيت حتى يصرخ الدجاج والبط فى الحظيرة صراخا مديدا مختلطا ، كما لو كان قد خيم عليها ظل صقر بسط جناحيه ، فهل سيرفع فتاك عينيه فى وجهه الجهم ؟

عادت المرأتان إلى مكانيهما .

جلست نوارة على الكرسى ، بينما قبعت الخادمة منكمشة عند قدميها ، مثل كلب أسود يتلمس الدفء .

أحكمت إحاطة شالها الأسود حول وجهها .

دخل الأب ممسكا فى يده مصباحا غازيا مضيئا :

وضعه على الأرض .

تراقصت أشباح الموجودين على السقف والحوائط .

التفت إلى ابنته والخادمة :

ـــ طاب مساؤكما .

نهضت المرأتان وجلتين .

وتحركت أشباح الخدم خارج النوافذ فى حذر خشية الانفضاح .

كرر الأب تحيته .

ـــ أقول طاب مساؤكما .

ثم سأل :

ـــ ألم يدلف إلى هنا أحد ؟

أجابت الخادمة :

ـــ لم يزرنا أحد سوى القمر . . وأشعته المتسللة .

خيم الصمت .

وضع الأب يديه وراء ظهره ، ومضى يذرع الغرفة جيئة وذهابا .

زاد وقع قدميه من ثقل الجو الجاثم على الغرفة .

سألت نوارة مترددة :

ـــ هل تريدنى فى شىء ، ياأبى ؟

توقف الأب عن مشيئته .
رمقها .
ثم ضحك .
ـ آه ، تسرني فطنتك، وتعجبني .
رفعت نوارة كتفيها واخفضتهما ، كما لو كان الأمر طبيعياً جداً :
ـ أنت أبي . هذا يكفي كي أفهمك .
أمسك بيدها :
ـ تعالى هنا .
أجلسها على المقعد .
انكب عليها محملقا فى وجهها .
جثم الصمت برهة .
تسللت الخادمة من الغرفة هاربة فى هدوء .
قال الأب لابنته :
ـ لونك لايعجبنى . يجب أن نصلح منه . هذه الأنيميا المزمنة يجب أن نطردها عنك .
ضحك ساخرا ، وأردف يقول :
ـ طالما بدأ الخطّاب يطلبون يدك .
ابتعد عنها ، وبدأ يتأملها :
ـ امتلأ الوجه بالتجاعيد ، وضمرت الوجنتان . انظرى كيف ساءت حالك ؟
أخرج من جيبه مرآة وضعها فى يدها ، ورفعها إلى وجهها :

صرخت نوارة ، ولمعت المرآة من يدها !
ــ آه ، أهي دائما في جيبك ؟ رهن أمرك ؟
قال الأب لائما :
ــ أتظنين أن هاتين العينين وهاتين الوجنتين ملكك أنت وحدك ؟
إنها ملكي أنا أيضاً .
تراقصت ذبالة المصباح .
لمعت المرآة الملقاة على الأرض .
أسدى الأب نصحه إلى ابنته :
ــ أخرجي إلى الهواء الطلق . تمشي قليلا ، وسترين كيف ينصلح حالك .
ثم استدرك قائلا :
ــ لكن ، لا ، لا . يكفي أن تقفي في الشرفة ، وتستنشقي نسمات الليل .
اطبق الأب جفنيه ، وملأ بالهواء رئتيه ، ثم تنهد بحسرة :
ــ آه ، نسمات الليل !
تمالك نفسه ، وقال :
ــ هذا يكفي . الخروج الكثير ليس مفيدا ، على أي حال .
ــ حسبي الوقوف عند النافذة ، يا أبي .
عدل عن نصحه :
ــ أصبتِ . الحرص واجب . ليس الشحوب أسوأ من أمور أخرى .
واستطرد يقول :
ــ ثم ماذا بالخارج ؟ لاشيء ، يا ابنتي . متاحف ، حدائق للحيوان ، مراكز تربية نباتات ، أماكن أثرية ، مبنى البلدية ، مطارات ، مراكز تجارية ،

شركات ، معامل تحاليل طبية ، معارض ، مكاتب ودواوين . أما هنا فى البيت ، فكل شىء موجود . هاهو التلفزيون ، عامر بالبركة ، نافذة على العالم . و « حواء » تأتى إلينا كل أسبوع ، وتصلنا الجرائد يوميا . ماالذى ينقصك بعد ذلك ؟ ربما ستقولين حضور الحفلات الموسيقية والباليه ، لكن ماتفقدينه من عدم حضورها ، على أى حال ، قليل ، ويمكن تعويضه بالقراءة . هاهى المكتبة تملأ الأرفف والدواليب تستطيعين التهامها .

ـــ والرحلات مع الأصدقاء ، يا أبى ؟

تجاهل الرد على ذلك .

تنهد :

ـــ طالما رحلت أمك إلى وديان الصمت مبكرا أنا أمك . علىّ أن أغمرك بالحنان الذى حرمتِ منه بوفاتها .

ـــ ليس ماتغمرنى به حنانا . أنت أبى ، وأنا ابنتك .

ضحكت نوارة ضحكة ازدراء .

رفع الأب يده . هم أن يصفعها . أحجم . أخفض يده .

عاود المشى فى الغرفة صامتا . يداه خلف ظهره .

جثمت برهة صمت ثقيل كأنها دهر .

ثم استدار نحو ابنته . تأملها مليا .

أشار إلى المصباح . قال :

ـــ أقسم بهذا المصباح الذى أحمله ، إنى لم أكن انتظر منك هذه المعاملة .

رفع يديه شاكيا :

ـــ لماذا أصبح الجميع ناكرين للجميل ؟ لماذا أصبح الأولاد يعضون

الأيدى الممدودة إليهم بالحنان ؟ ! أولئك العميان الذين رددت إليهم البصر ، أولئك المقعدون الذين بعثت الحياة فى سيقانهم اليابسة ، أولئك الصم والبكم الذين وضعت يدى على شفاههم وآذانهم فأعدت لهم نعمة السمع والكلام ، كل أولئك المتعبين ، هل يستحقون رحمتى ؟ ! ها هم يشربون الخمر فى الحانات ، ويعربدون .

تململت أشباح الخدم عند النوافذ ، ومالت رؤوسها تتهامس ، ثم اختفت .

أخفض الأب يديه .

التفت إلى ابنته متهما ، وغيّر موضوع الحديث بجفاء :

ـ نمت إلى علمى أمور شائنة .

حدق إليها .

أخفضت عينيها ، وقالت :

ـ كل شيء فى الخارج شائن ومريب .

ـ سمعتى أضحت فى خطر . اذكرى أنك ابنـــة محارب قديم ، تغطى الأوسمة صدره ، ويعرف كيف تطلق القذائف ، وكيف تشعل الحرائق ، كما تعرفين أنت كيف تطهين الطعام ، وترفين الجوارب ... لعنة الله على حرب الذباب . مائة عام راحت هباء . وها أنا أسمع أخبارا تدوى فى أذنى .. عنك !

قطب جبينه . صوب إليها نظرة ثاقبة . وأردف يقول فى لهجة صارمة :

ـ حبى له حدود ، يجب أن تعرفى ذلك .

ـ أين سمعت ماسمعت ؟ هنالك ، فى الخرائب ؟
انتفض الأب :
ـ نوارة ، اشفقى على ! سمعتى تتحطم كإناء زجاجى يهوى على الأرض !
ألا ترين المشيب دب فى شعرى ، ويدىّ ترتعشان ؟
ـ حسنا ، اهدأ يا أبى . اهدأ ، نحن وحدنا .
أجال الأب نظرة ارتياب من حوله :
ـ تظنين ذلك .
قالت نوارة مهونة عليه الأمر :
ـ لم يكن ماقلته بالشىء الجديد ، على أى حال .
تنهد الأب ، وهز رأسه :
ـ الكفاح شاق . تعرفين أنى أقامر بكل شىء . أليس كذلك ؟
ـ وأنىّ لى أن أعرف ماذا تفعل هناك فى الخرائب ؟
ـ ياللمهزلة ! كيف لاتعرفين ؟ انك تجرحيننى بهذا الكلام . لايؤلم المرء
شىء قدر تجاهل أهل بيته لجهاده .
مسح الأب جبينه . وأردف موضحاً :
ـ أريد الجميع ظلالا لى . إذا انطفأت انطفأوا .. أريد أن أطهّر . أريد
أن أكنس وأنظف . كم تعذبنى صورة الإنسان المنفرة !
أغمض الأب جفنيه ، واستطرد يقول كما لو كان يتلو صلاة :
ـ نحن فرسان الأحلام ، لم يعد للدنيا الأهمية التى كنا نتغنى بها منذ
قرون .
فتح الأب عينيه ، ولوح بقبضته فى الهواء :

ـــ هناك عمل ضخم يجب القيام به . انى أمثل عالماً بأسره . قيما جديدة . . ظلة .

رفع الأب أصبعه مشيرا إلى أعلى ، وقد مالت ذراعه فى اندفاعها إلى الوراء :

ـــ أنا أقف هناك فى الخرائب ، لكنى القوة الدافعة . أنا الذرّة والطاقة . . الضمير اليقظ ، والأذنان المرهفتان . . والساعد البتار . .

داخلت صوته رعشة خفيفة :

ـــ أريد أن أرى حطام الدنيا يتطاير أمام عينى . . هذه قاذورات .

بصق على الأرض . مسح شفتيه بكمه . ثم تلفت فى أرجاء الغرفة :

ـــ أن أرى أشلاء هؤلاء المارقين تتناثر من حولى ، وتسقط فى بركة النار والكبريت . « كل واد يمتلىء . كل تل ينخفض ، وتصير المعوجات مستقيمة ، والشعاب طرقا ممهدة » .

مضى كما لو كان يحادث نفسه :

ـــ وهل يصمد الهشيم أمام المشعل ؟ مستنقع عطن . آسن المياه !

ضحك فى تشفـ :

ـــ لن تكون الخسارة كبيرة أن تُزلزل هذه المدائن الطينية كلها . استشرى الفساد والشر . إن أنتنَ الأشياء وأحقرها تسيطر على الطبيعة ، وتملك زمامها .

علا صوته ، كما لو كان يعلن قرارا جديداً :

ـــ « والآن ، قد وضعت الفأس على أصل الشجرة » !

تسلل بعض الخدم داخلين فى خفة وهدوء . أعقبهم غيرهم بذات الخفة

والمهارة . لم يفطن إليهم أحد ، فقد كانوا على مثل هذه الأعمال مدربين .
كما إن الأب فى سورة انفعاله وحماسته لم يكن لينتبه إلى أشياء من هذا القبيل .
أما نوارة فقد كان لديها من الأحزان والهواجس ما كان يشل منها السمع والبصر .

تحاشى المتسللون مواضع الضوء . لاذوا بالأركان والظلال كالجرذان .
ابتلعهم الظلام . وهناك كتموا أنفاسهم ، وظلوا يرقبون كل شيء صامتين متأهبين . لاتبدو عنهم حركة ، ولا تند منهم زفرة، وكأنهم غير موجودين.
واصل الأب كلامه غير آبه بما يدور حوله . فاضت خواطره ، وملكت حواسه ، فلم يعد يرى أو يسمع سوى نفسه :
ـــ لكن نحن يجب أن نمضى . نحن بصيص النور فى آخر النفق . نحن انفجار فى مستودع للأخشاب . يجب أن نحقق المثل التى نؤمن بها .
نقيها من الشوائب ، ونحفظها للمستقبل ، للأجيال المقبلة !

كان الأب يؤثر رضا الله على سخط العباد . ذات مرة اشتغل حطّابا ،
جمع الحطب يريد أن يبيعه فى السوق ، وجاءته امرأة تشترى منه ،فوجدته يطلب مالا كثيرا لحطبه ، وقبلت أن تشتريه على مضض ، فسألها وهى تنقده النقود عما تريد أن تفعله بهذا الحطب ، فأجابت بأنها تريد أن توقد به ناراً تقطر عليه خمراً ، فهاله الأمر . بصق على النقود ، وردها إلى المرأة العاقر ساخطا ، ورفض أن يبيع . وأصر على الرفض . وتجمع كل من فى السوق ، ونعتوه بالغباء ، لكنهم أكبروا فيه تلك الروح العالية ، والنظرة المثالية ، والإصرار رغم كل التوسلات .

ومنذ ذلك اليوم هجر الأب تجارة الحطب ، فما كان لمثله أن يساعد على تقطير أم الكبائر . وانصرف إلى كتبه وتجاربه المعملية . وبين بواتقه وأنابيبه وأعشابه وأبخرته قبع لايريد عرض الدنيا وربحها الوفير . راح يحاسب نفسه فى كل صغيرة وكبيرة . وقاده تفكيره الطاهر إلى معادلة لو اهتدى إلى حلها لاخترع ماهو فى حجم بيضة الرخ لتطهير الوجود من كل أدرانه ووساخاته . ملكت عليه هذه المعادلة كل وقته وشغلته عن تفاهات الحياة اليومية . لم يعد يلعب النرد ويرتاد النوادى . إن باع حفنة من أعشابه المحترقة فبالقليل . لاينتظر ارتفاعا فى الأسعار ، ولا بوارا فى الأسواق . الظروف الطارئة لاتعنيه ، والصعوبات المادية غير المتوقعة لاتثنيه . وحتى أفعال الأمير لم تمكن تزحزحه عن موقفه قيد أنملة .

كان مثلا فريدا بين الرجال . من المحال أن يوجد مثله ، رغم أننا نجد نظراءه يملأون أيامنا ، ويشغلون حياتنا عبر كل الأجيال .

كان غارقاً فى أحلامه وأحلامه وبواتقه ، لكن الأحداث أيقظته وفتحت عينيه على أمور كانت خافية عن باله تجرى فى الخفاء ، ولا يراها . أما الليلة فقد راحت الغفوة ، وجاءت الصحوة .

ثاب الأب إلى نفسه . هدأت فورته كما تهدأ كل فورة .

والتفت إلى ابنته :

ـــ أقول لك هذا لتدركى إلى أى حد أنا معرض للهجوم ، وإلى أى حد أحتاج إلى عونك ، إلى وقوفك فى صفى ، إلى جوارى ، خلفى .

تعالى صوت الإبنة مشوباً برنة استهزاء خفية ومكتومة :

ـــ خاف القيم التي تمثلها ؟ ! أنا المخلوقة الضعيفة الخائفة ؟ !

ـــ يالك من فتاة تبخس حق نفسها . أجل أنت ، تقفين خلفى ، لأن خصومى سيتلمسون كل فرصة وكل هفوة من جانبنا ، حتى يطعنونا فى الظهر . سيستغلون كل ورقة ، كل نقطة ضعف . سينبشون الماضى .

لوى الأب شفتيه متضايقا ، وأردف ثائرا :

ـــ ومن يخلو من العيوب والزلات ؟

ارتسم الحزن فى عينى نوارة . وقالت :

ـــ وأنا نقطة ضعفك ، يا أبى ؟

ـــ لم أكن أريد أن أقول ذلك . اعذرينى فأنا لاأشعر أننى على مايرام الليلة . هناك شىء يجثم على عقلى . شىء يضيق خناقه على ويطن فى جنبات رأسى بلا انقطاع ، كالو كان ألف شيطان يتزاحمون على الدخول من باب ضيق ، ورغم ذلك فأنا أحس براحة غريبة .

لمعت عيناه .

عاد يقول :

ـــ تسيئين فهمى . أقصد أن أحميك . أن أصونك من الشراك التى قد ترديك فيها عذريتك .

ضحكت نوارة بشدة :

ـــ عذريتى ؟ !

تحولت الضحكة إلى زفرة أسى :

ـــ عذريتى ، يا أبى ؟ !

هون عليها الأب بلهجة متلعثمة :
ــ لو كنتِ ارتكبت هفوة فى صباك ، فلا يعنى ذلك أن روحك ليست طاهرة .
ثم عاد إلى الموضوع الأصلى بلهجة حازمة ، مثل قائد يجمع شتات جيشه ، ويمسك بالزمام :
ــ إننا فى محنة . علينا أن نواجهها ، وسنجتازها معا . هاأنا أمد إليك يدىّ .
دققت نوارة النظر إلى راحتيه .
مضى يقول لها حتى يكسب ثقتها :
ــ أنا أمان من الهلاك ، نصرة وعتق ، خلاص من الخطيئة .
صاحت وهى تنظر إلى اليدين الممدودتين إليها :
ــ لكنهما مثقوبتان ، يا أبتاه !
سحب يديه بسرعة . أخفاهما خلف ظهره ، وأردف يقول بلهجة مطمئنة :
ــ سأحميك حتى النهاية . يكفى أن تساعدينى .
رفعت إليه نظرة عميقة متسائلة :
ــ ماذا تريد منى ؟ كل ماطلبته نفذته . لم أقل شيئاً لأحد . كل ما أردته هو الستر . الستر . هذا ما أطلبه بين الجدران التى أحتمى بها .
ربت الأب على وجنتيها مشجعاً :
ــ أنا الذى أختار اللحظة . ثم لا تنسى أن ميراثك عن أمك لايستهان به . كل تلك الأقراط والقلائد الزجاجية ، والخلاخيل ، والخرز الملون ...
هز الأب رأسه :

— أنت لاتعرفين الناس، ياعزيزتي . تجلسين طوال النهار هنا في هذا الحجر، فكيف لك أن تعرفي ؟ ألم أقل لك أنك مغمضة العينين غريرة ؟

— ماالذي يعنيني أنا من كل ذلك ؟ ليس هذا من شأني . في النهاية لاأرى أنه صلب العزيمة ، عنيد . هل تريد مني شيئاً آخر ، يا أبي ؟

— بقي استفسار أخير . أريد قليلا من المعلومات ، بصيصا من النور ، حتى أكون جاهزا ، ولا أجد نفسي غير معد للكلام .

غضت نوارة بصرها :

— ألم أبح لك بكل شيء ، يا أبي ؟ لم تهوى تعذيبي ؟

زاد ارتباك الأب ، فلم يكن يعرف كيف ينفذ إلى النقطة التي يريدها :

— أجل . . لكن . . هناك . . ذلك الشيء . . الصغير الذي لا أفهمه . . هلا عاودت القصة من جديد ؟

نكست نوارة رأسها ، ونظرت إلى يديها المتشابكتين في حجرها .

صمتت لحظة .

ثم خرجت الكلمات من فمها بطيئة متثاقلة ، وهي تدلي باعترافها :

— ذات يوم اكتشفت أن هناك من يرقبني ، وأنا أعزف وأغني . عينان ضيقتان حذرتان . تكرر ذلك عدة أيام .

كان الأب يتعذب . ندت منه بضع كلمات تنضح بألمه :

— لماذا ، يابنية ! لماذا !

مضت نوارة :

— لم أعر الموضوع التفاتا أول الأمر ، إلى أن اكتشفت أن تينك العينين عينا رجل . . . شديد الالتصاق بي .

سكتت نوارة برهة :

ـــ توطدت بيننا علاقة ـــ

قاطعها الأب جزعا :

ـــ أية علاقة ، يانوارة ؟ !

مضت نوارة بصوت تتزايد بحّته ، وبشهوة متزايدة :

ـــ مثلما بين العنق وحبل المشنقة ، مثلما بين المطرقة ورأس المسمار ، مثلما بين المنشار وكتلة الخشب .

خيم الصمت .

أسقط فى يد الأب .

ضرب كفا بكف ، وقال :

ـــ قُضى الأمر. ليس أمامنا الآن إلا أن نحارب وظهورنا ملتصقة بالحائط .

استرد ثباته ، وشد قامته . وربما حتى يخفى هزيمته :

ـــ الأمر طبعى . كان ذلك أول مادار بخلدى ، لكنك تفهمين ، ولا شك ، انى أواجه تحديا كبيرا . أعرف كيف أكلمه ، وكيف أتصرف معه . اطمئنى . فقط ، فليأتِ .

أومأت نوارة برأسها ، وقالت :

ـــ سيأتى .

التفت الأب إليها بسرعة ، ونظر إليها نظرة ارتياب :

ـــ كيف تعرفين ؟

ـــ مجرد تخمين .

لانت قسمات الأب :

ـــ لاتجزعي . على الأخص ، لاتجزعي .

قالت نوارة بنبرات ثقيلة :

ـــ آه ، كم أسبب لك من عناء ، يا أبي .

لم يكن يتوقع منها ذلك ، نظر إليها بامتنان وفرحة :

ـــ تشفقين علي ، إذن !

تناول يدها ، وربت عليها برفق :

ـــ تفهمينني . أشكرك . هذا ما كنت أريده .

رفع يدها ، وقبلها بحنان .

أسند خده عليها ، وأغمض عينيه بارتياح وسعادة .

رفرف الصمت برهة .

ظهر عند الباب شاب بدا عليه التردد .

رأته نوارة . خفق قلبها بشدة .

اضطربت يداها في راحة الأب .

فتح عينيه ، كما لو كان قد تلقى صفعة .

سمع خطوات القادم عند عتبة الباب .

التفت .

عرفه .

كان « طالب اليد » .

كان طالب اليد رث الثياب ، حافى القدمين ، يحمل شبكة من شباك الصيادين على كتفه ، بادى الاهمال فى زينته ، لكن مظهره يبعث على الاشفاق والحب . شاحب هزيل ، حالم النظرات . عندما تقع العين عليه لا يكاد المرء يملك نفسه من أن يهتف بأنه مؤمن ، إلا أنه ليس هو على أى حال ، فرغم ملامحه التى تشبه ملامح مؤمن إلى حد بعيد ، فهو لسبب أو لآخر ليس مؤمناً .

خطا الشاب بضع خطوات إلى داخل الغرفة .

رأى الآب .

توقف .

أجال فى الحاضرين نظرة بريئة رائعة .

التقت عيناه بعينى نوارة .

ابتسم لها .

صعدت الدماء إلى وجنتيها .

خفضت نظرها فى حياء .

دب النشاط فى صفوف الخدم .

تحركت أشباحهم من مكامنهم .

وهمهموا .

لمعت عيونهم وهى تتابع الوافد الغريب ،كومضات برق خاطف فى سماء ملبدة بالغيوم القاتمة .

تجمعوا خلف الأب ، وحوطوا به فى شكل نصف دائرة .

وقف رئيس الخدم خلف الأب ، كما لو كان ظله .

مال عليه ، وهمس فى أذنه كلمة تحذير .

قال له الأب :

— اطمئن ، لو سقطت السماء لسندتها بذراعى هذا ، ولو مادت الأرض من تحتى لثبتها بقدمى ، هكذا .

دق الأرض بكعبه عدة دقات .

وبدأ التحقيق .

قال الأب :

— أخبرتنا ابنتى أنك تطلب يدها .

قال طالب اليد :

— لم أتمالك نفسى . أحببتها . لم أقدر على الابتعاد عنها . طويت شبكتى ، وتبعتها إلى هنا .

تعالت همهمات خافتة من الخدم .

أجال طالب اليد بصره فى جموعهم ، وقال ببساطة :

— هذا كل ما فى الأمر .

سأله الأب :

— أتعرف شيئاً عنها أيها الصياد ؟ هل أخبرك أحد عن سنها ؟

— وهل أخبرنى البحر عن سنه ؟ هل أخبرتنى السحب عن أعمارها ؟

— حسنا ، ها أنا أقول لك . أنها على أعتاب . . .

اطرقت نوارة إلى الأرض فى خجل .

لحمها الأب ، فنكص عن ذكر سنها .

استطرد قائلا :

ـ حسنا . وكانت خلال السنوات الخمس الأخيرة . . .

تراجع عن اكمال عبارته، وقال :

ـ مرت أعوامها عقيمة .

قال طالب اليد بلهجة مخلصة :

ـ اعرف أنها لا تحبنى . . وربما لن يمكنها أن تحب ، لكنى أطلب الكثير لو طالبتُ أن تحبنى .

تعالت همهمات الخدم .

لم يأبه الشاب بها ، واسترسل قائلا :

ـ لم أطمع فى أن يحبنى أحد قط .

لانت صرامة الأب برهة عابرة ، وقال للفتى متنهداً :

ـ اعرف معنى ذلك جيداً . . ذات مرة . . انكسر قلبي .. ذات مرة منذ أمد بعيد . . تلمح فى مخيلتى صور غريبة أحياناً . فى لحظات يثيرنى عبير ، فينطلق عقلى من عقاله نحو شئ لا أعرف كنهه .

غرق الأب فى ذكرياته برهة .

جذب طالب اليد أطراف الحديث برفق ، وقال :

ـ لن انبس ببنت شفة . سأجلس إلى جانبها ولن أزعجها . يكفينى أن أكون بجوارها . ستكون هذه متعتى . سأكرس حياتى لها .

شُغل الأب عنه بذكرياته . استرسل بصوت يكاد يكون همسا :

ـ ذات أمسية فى أغسطس . ذكرى بعيدة . دعنى أوقظها من بواكير

شبابى . الشباك مفتوح فى غرفتى الورقاء ، وأريكتى الحمراء تسبح فى ضوء القمر .. أكانت حقاً فى أغسطس تلك الأمسية ؟ كانت بشرة مخملية ، كأنها من يا سمين أســـود قد نُسجت . لا أكاد أذكر العينين ، لكنى أذكر اللمسات الدافئة ، والانفاس . وأكاد أذكر الشفتين . يخيل الى أنهما بنفسجيتان .. آه ، أجل ، كانتا فى لون البنفسج .

غرق الأب فى لجة من الصمت والتأمّل .

لكزه رئيس الخدم حتى يفيق من ذكرياته المشبوبة ، وقال له بصرامة :

ـــ ألف رجل الى الهلاك يذهب من أجل متعة قصيرة ، كالحلم تتبدد .

هب الأب ، وصاح فى الصياد مذهولا :

ـــ لكن هذا الحب ، يا فتى قد ينتهى بمأساة !

زاد الخدم التفافا حول الأب بوجوه قاتمة وايماءات تهديدية .

أطل رئيس الخدم برأسه من على كتف الأب ، وسأل طالب اليد :

ـــ هل يمكنك أن تخبرنا ، أيها الشاب ، عن مبلغ ما تكسبه فى اليوم ، أو فى الشهر ، أو فى السنة ؟

رفع الفتى كتفيه ثم اخفضهما ، وأجاب كما لو كان السؤال الذى وُجّه اليه فى غير موضعه :

ـــ فى الواقع ، لا يمكننى أن أعرف . جيبى على الدوام خاو ، لكن مستقبلا ..

قاطعه رئيس الخدم قائلا :

ـــ المستقبل مجرد فرض . لنقف عند الحقائق .

أدرك طالب اليد أن رده كان أسوأ رد يُتوقع منه . أراد أن يصحح موقفه :

ـــ انى أعمل بكل جد واخلاص . يمكننا ان نعيش أنا ونوارة ، على ما اكسب ، متى كنا حريصين .

صاحت نوارة ، وقد هبت لنصرته :

ـــ لن نُضطر إلى ذلك . ان لى ايراداً خاصا .

التفت الأب إلى ابنته . قال بلهجة صارمة :

ـــ تذكرى ، ياعزيزتى ، أن لى كل السلطة ان أحرمك من هذا الايراد ، متى أقدمت على عمل شائن .

آلم هذا الرد طالب اليد . قال بمرارة :

ـــ وهل يعتبر زواجها منى عملا شائناً ، يا سيدى ؟

انبرى رئيس الخدم يقول له من فوق منكب الأب :

ـــ لا نعرف عنك إلا القليل ، يابنى ، لكن ما نعرفه عنك ليس ساراً . منذ متى تعمل فى مهنتك ؟

ـــ منذ أن دخلت بابل جيوش الخلفاء .

ـــ ومع ذلك لم تصب شيئاً من النجاح . وماذا كنت تعمل قبل ذلك ؟

ـــ بائع ساعات ، بهلواناً ، مهرجاً ، صحفياً ، ماسح أحذية ، محنط نصوص ، مفكراً ، وكاتباً صحفيا .

أراد رئيس الخدم أن يلعب بالفتى ، كما يلعب القط بالفأر قبل أن ينقض عليه :

ـــ عظيم . عظيم . انها لخبرات هائلة .

ثم قال له بلهجة ساخرة :

ـــ فشلت فى كل هذه الأعمال ؟ تركتها ؟

ـــ لم تكن تناسبنى ، فأنا على الدوام أبحث عن الموت اللذيذ المؤلم المُراد بلا إرادة .

نظر طالب اليد إلى نوارة

أخفضت نظراتها عنه بسرعة ، مثل عصفور صغير خائف .

أسترسل قائلا :

ـــ أنى أبحث عن الحب .

سرت فى جموع الخدم همهمة .

التفت طالب اليد إلى الأب . غمز له بعينه قائلا :

ـــ اليس كذلك ، أيها السيد ؟

رد الأب بطريقة آلية ، وبصوت مرتفع :

ـــ لا أوافق. أبنتى يجب أن تبقى إلى جوارى . . هنا . .

وأرتعد صوته :

ـــ انى خائف .

رفعت نوارة عينيها اليه سائلة :

ـــ وأنت أيضا تخاف ، يا أبى ؟

كان النهار لا يزال طويلا ، لكنه كان يخشى . . .

ـــ ماذا تخشى ، يا أبى ؟

كان يخشى الأيام التى تذوى . يخشى الظلمة التى تعم بعد القنديل .

أطرق الأب ، ولم يجب .
قطعت نوارة الصمت المخيم صائحة جزعة :
— أبى ، القيثارة التى انكسرت كانت مليئة بالنجوم !
تأجج الألم فى قلبها من جديد .
التفت الأب اليها ، وأجابها فى خشونة :
— لكن الحنجرة التى طلبت كانت حافلة بالخفافيش .
كان ذلك بمثابة إيذان بالانفضاض .
انصرف الجميع تاركين نوارة وطالب اليد وحدهما .

زحفت ظلال الغروب على الحوائط فى بطء .
وتعالى صوت طالب اليد كما لو كان طعنات خنجر يمزق قلب نوارة :
— لماذا ، لا تنفصلين عنهم ، وتكونين سيدة نفسك ؟
وجاءت أجابتها هادئة حزينة :
— من السهل أن تقول ذلك ، أما أنا فلا أستطيع .
انها ولدت فى هذا الميناء ، ولم تغادره قط . كانت تشعر كأنها قارب مربوط فى مرساة .
تنهدت . ثم ثبتت أنظارها عليه .
ثم لو كان ذلك شيئا يريده هو حقا لضغطت على نفسها ، وكافحت من أجله ، بكل قواها ، لكنها كانت تحس فى أعماقها أنه شىء تريده هى وحدها .
ضحكت ضحكة قصيرة مريرة .
هذا فضلا عن أن ذلك الشىء جاء متأخرا .

وقالت بحزن :

ـــ مالت شمس حياتى إلى المغيب . أبى دائما على حق .

تشبثت بذراعه ، وصاحت فى لوعة :

ـــ أرجوك ، صدقنى . أحب الحياة . أبغض هذه الجدران .

كانت فى حيرة من أمرها . لم تكن تدرى ماذا تفعل .

ـــ كيف ؟! كيف ؟ ! كيف ؟!

أمسك طالب اليد بيديها :

ـــ يقولون إنه أوقعك فى حبائله ، لكن أشد المراحل عسراً تبدأ الآن . يمكننا أن نعيش حياة طويلة معاً ، يا عزيزتى . ليس عليك إلا أن تقولى كلمتك .

خفض صوته ، وألح فى طلبه :

ـــ أيتها الحبيبة المسكينة ، انهضى ، اهربى ، ارحلى . لازال الوقت متسعاً .

دفنت نوارة وجهها بين يديها ، وقالت بصوت تمزقه الرغبة والمقاومة :

ـــ لن أبعد عنه ! لن أبعد عنه ! هو أبى ، والفراق عنه مُرٌّ . شىء فى أعماقى يمنعنى . عينا ثعبان خفى تكبلانى .

لم يستسلم طالب اليد ، وأردف هامساً :

ـــ احزمى ثيابك الليلة ، وهم نيام . سنرحل بأول قطار ، عند الفجر معا .

جذبها من يدها .

مانعت ، وسحبت يدها .

ـــ لا جدوى ، ياحبيبى .

كانت جزءاً منهم ، جذورهم مغروسة فيها ، تشدها إليهم بقوة .

ـــ هو الشجرة الكبيرة التي تبسط عليّ ظلها .

ـــ سيقضي عليك .

ـــ فليقض علي . لا أخشى شيئاً إلى جواره . إذا سألته خبزاً لن يعطيني حجراً .

صمتت تفكر . ثم استطردت :

ـــ لكني في النهاية امرأة ، وربما غيرت رأي .

ـــ وعندئذ ؟

اجابت في حزم :

ـــ سأختط طريقي .

تناولت عودها ، مضت إلى النافذة ، وجلست شاردة اللب حتى انتهى بها الأمر فلم تعد تحس بوجود أحد .

أُسقط في يدي طالب اليد . هز رأسه ، وهم بالانصراف .

وعند الباب استدار ، وتأملها مليا :

ـــ لا أحد يفلت من قدره . طاب مساؤك ، يا . . يا أختاه .

لم تسمعه .

استغرقت نوارة في صّلاة خافتة :

ـــ الروح التي منحتني إياه ، يا أبتاه ، طاهرة . اعرف أنك ستنزعها مني إذا حانت الساعة . . لتعيدها إلى المستقبل .

زحفت الظلال بسرعة .

وخيمت الظلمة .

— ٥ —

هرول مؤمن داخلا فى أعقاب الأستاذ كرم .

— طاب يومك ، ياسيدى الأستاذ

التفت الأستاذ كرم إلى مؤمن .

كشف ضوء المصباح المنعكس على وجه الأستاذ شبهاً قويا بالأب حتى لايكاد من يراه يهتف أنه هو ، لكنه ليس الأب على أى حال .

توقف الأستاذ كرم ،وصاح دهشا :

— من أرى ؟ تلميذى القديم ؟ مرحبا بك ، رافق .

لم يكن قد رآه منذ سنين . دارت به الأيام . رحل ثم عاد . هذا حال الدنيا . رحيل ثم عودة على الدوام .

فهم الأستاذ كرم ما كان يدور بخلد تلميذه :

— جئت تطلب الرأى ؟

مد إليه ذراعه :

— حسنا ، أرنى .

ناوله مؤمن أوراقا :

— ها هى تجاربى .

خفت ضوء الغرفة قليلا .

ألصق أحد الخدم أنفه وجبينه بزجاج النافذة المعتم .

تامل الأستاذ ماقُدم إليه من أوراق . ثم ثبَّت على مؤمن نظرة ثاقبة :

— دبت البرودة فى الأرض ، وفى سطح البحيرة .

وضع مؤمن يده على قلبه غاضبا :

ــ سيدى ، أنت تنبش فى أعماقى .

غلت ثورة الأستاذ :

ــ اختفى الحذر . راحت الأصياف الدافئة إلى غير رجعة . النظرات شردت إلى البحر ، واظلم الأفق .

ألصق الخادم أذنه على الزجاج علّه يتابع ما يقال .

عاد الأستاذ يتفحص الأوراق برهة قصيرة :

ــ عما تبحث ، يافتى ؟ ماذا تتوقع ؟

ثم واجه التلميذ بحزم :

ــ قل لى هل تنوى الخروج ؟

هز مؤمن رأسه نافيا التهمة عن نفسه :

ــ ليست تجاربى رغبة فى الفرار ، أنا أشد ارتباطا ، ياسيدى .

وقال الأستاذ بغضب مكتوم :

ــ هل دخلت عقل قط نهاب لحظة تأهبه للانقضاض على عصفور ؟

دار الأستاذ حول مؤمن متفحصا واضعا يده خلف ظهره :

ــ ويل لك إذا كنت قد تغلغلت ، واكتشفت ما كان خافيا .

مضى مؤمن يؤكد صدق نفسه بحماسة :

ــ عالم أجزم لك أنه أكثر دقة ونظاما ، كائنات قد يُظن أنها لاتعنينا ، لها حياتها ومغامراتها ومعاركها ومآسيها .

ضحك الأستاذ مستخفّاً :

ــ تتحرك ؟ أجل تتحرك فى جو بالخرافات أشبه !

ولوح بيده مستنكرا :

ـ لا . لا ينهض ذلك عذرا .

ومع ذلك انها منا . انها فى أعماق وجودنا . انها فوق هاماتنا . انها هنا وهنالك وفى كل مكان ، ويزداد ضغطها الحاحا وقسوة يوماً بعد يوم .

أهل المدن الكبيرة فى حاجة إلى الخروج من الجدران العالية وأسفلت الطرق.

وصاح الأستاذ :

ـ لكن أنت حذار . لا شأن لك بكل هذا .

ثم أخفض صوته :

ـ نحن من أعماق الريف .

الرتابة أفسدت طعم الحياة على الشفاه العجوز . ألفت العيون الضوء . لم تعد تبصر الظلمة . لم تعد تلتفت إلى الذرات الوضيئة التى تعبر الأفق فى ليالى الصيف . أنظر إلى عينى طفل تلمعان وهما تنظران إلى عجلة دراجة تسير ، أو إلى بندول ساعة يهتز .

جاء خادم آخر ، والصق أذنه بالنافذة .

عاد الأستاذ يقول ساخرا ناقما :

ـ إذن ، تسيطر عليك فكرة الطبيعة الحزينة . ستدفع الثمن غاليا .

لم يكن ذلك بالشىء الجديد عليه .

كان يعرف أنه يوم يموت لن يسير فى جنازته غير أبيه وأمه . . وربما كلبه الأمين .

وكان قد وطد العزم أن يمر على أهل المدينة واحدا واحدا قبل أن يوضع فى الصندوق ، ويسألهم ما أذا كان لهم فى ذمته شىء .

كان يعرف أنه سيقتل يوماً ، بالفأس أو بالخنجر .

وكان يتخيل الأمور كما ستكون عليه : ها هو الرأس الرخامي قد نُزع والشعر الجعد فُرِقَ في الوسط ، ثم أنسدل على الأذنين والخدين والعنق ، مثل موضة تلك الأيام .

صاح مؤمن منذراً الأستاذ كرم :

ـــ لمسة أخيرة في ثوب ديدمونة قبل أن يحفظ في الدولاب !

سخّف الأستاذ من إنذار مؤمن :

ـــ تيجان تزحف على الأرض . تبحث عن رؤوس تصعد دماها ، وتلمع . فيران تعيث في القاعات فساداً ، ورماح نُثرت بين الأنقاض .

هز الأستاذ رأسه :

ـــ أنى أعرفك حق المعرفة .

وضحك ساخراً من تلميذه :

ـــ ليس قلب الإنسان سوى صرخة . لا شيء غير ذلك .

قلب الإنسان صرخة ؟ ! هو يقول ذلك ؟ ! وهل من أحد يعرف صرخة الإنسان مثل مؤمن ؟ ! هل من أحـــد سمع صداها في أعماقه مثل مؤمن ؟ !

إرتج كيانه إنفعالاً .

لقد رأى المسوخ والغيلان تطبع القبلات على شفاه الصبايا ، وترشف الدماء من أعناقهن ، والنساء العاريات يرقصن رقصة المنايا .

وقال الأستاذ مسخفاً :

ـــ أعرف داءك ، وسبب بلواك . سكنتَ البيوت المهجورة النائمة بين الأغصان الكثيفة على شواطيء المستنقعات .

تنهد مؤمن ، وتتابعت الصور فى مخيلته .

لقد عرف العزلة اللانهائية تخيم على الطبيعة الخلوية الحزينة . وينبثق من أرجائها فجأة رعب لا يُدرَكُ كنهه . رعب لا يمكن وصفه ، حتى يصبح صرخة تمزق السكون .

صوب الأستاذ إليه أصبعه متهماً :

ـــ أيها الخسيس ، أتنكر ذلك ؟

جحظت عينا مؤمن ، وتقلصت شفتاه . انبسطت راحتاه ، وانفرجت أصابعه . بدا كما لو كان قد غاب عن وعيه ، واقتصرت الحياة على يديه اللتين تتحركان بكل مضاء فى الفضاء نحو عنق الأستاذ كرم الذى هوى إلى الوراء على الأرض راكعاً على ركبتيه فاغر الفم ، يريد الصياح لكن الصرخة لا تخرج من حلقه .

حوط مؤمن عنق الأستاذ كرم ، وقال له بصوت مبحوح يقطر حقداً :

ـــ أعرف ماذا تريد . كف يدك عنها . لم تعد فى ولايتك ، ولم تعد غريرة . ليكن التمساح عدوك .

حاول الأستاذ كرم من جديد أن يطلق صيحة فخرجت من شدقيه ضحكة حادة أعادت مؤمن إلى صوابه ، فأرخى قبضته ، بينما ظلت يداه مشدودتين فى الفضاء .

تمكن الأستاذ من الإفلات . فر مبتعداً عن مؤمن . أسند ظهره إلى الحائط لاهثاً . مسح جبينه ، ثم أصلح من ربطة عنقه . قال بصوت عميق :

ـــ أيها الحقير ، فلتقطع ذراعك . كانت مهزلة رائعة ! مهزلة محكمة ! دعنى أضحك ملء شدقى .

إبتلع لعابه ثم أردف صائحاً :

ـــ أم تريدنى أن أبكى ؟ ! إن دهشتى لعظيمة ! استحققتَ درجتك العلمية بجدارة !

وخطا بضع خطوات نحو مؤمن بإيقاع تهديدى :

ـــ أيها الغبى ، هذه ألاعيب دنيئة ! أهنئك !

ثم قال له بصرامة :

ـــ ما هذا ، أيها الحرباء ؟

أمسك مؤمن من كتفيه :

ـــ كم كانت نظريتك مبهمة !

تراجع مؤمن بضع خطواته وجلا منهارا على وشك أن يصرخ .

تبعه الأستاذ كرم مركزا نظراته على عينيه :

ـــ لا تعرف كيف تتقن لعبتك . لستَ الرجل الذى توسمتُ .

واستطرد يقول له بازدراء :

ـــ لست سوى دبوس تُشبَّك به الأوراق ، قارورة تغلى فيك الأحماض، مراهق أحمق غير قادر أن يفرز شيئاً لائقا ، حالم مسكين لا جرأة له على أن يصنع شيئاً يبعث على الإعجاب والفخر . كلكم حفنة من الكسالى الأغبياء .

ردد العبارة ذاتها صائحاً :

ـــ كلكم حفنة من الكسالى الأغبياء ! كلكم !

وضحك ضحكة خفيفة :

ـــ هل تعرف مضاد المادة ؟ كلا ؟ ! هل تعرف ماذا يعنى وجوده ؟ هل

رأيت نفسك فى مرآة مقلوبة ؟ ! هل تعرف خواصه العدوانية ؟ !
صفح مؤمن بشدة ، وقال له :
— عين ومداء ، قلما أيسر من شفائها .
فر التلميذ إلى الخارج مولولا .
إبتعد الخادمان عن النافذة بسرعة . اختفيا من حيث أتيا .
زمجر الأستاذ كرم مناديا :
— عنقرة ، الحق به حيا أو ميتا . ثم جهّز لى الحمام .
وخرج .

— ٦ —

أعدت حليمة الشاى ، وصبته فى أقداح من الصفيح . وزعتها على الخدم الحاضرين .
رشف كل من الرجال رشفة ، وأطلق من شفتيه آهة عميقة من الرضاء .
ضحك أبو الخيرات الأعرج ، وانبسطت التجاعيد على وجهه الذى اختلطت فيه القسوة بالبلاهة . قال مداعبا حليمة :
— غسيل الأطباق هذا تسميه شايا ؟ !
تجاهلت دعابته ، وقالت :
— سيأتى زوجى بعد قليل . سيعود من جولته الليلية ، هو وبقية الزملاء .
دعك عنقرة يديه ، وحاول التغلب على اصطكاك أسنانه :
— الجو ... يا ... بارد .
قفز جراب الرأى على قدميه واقفا ، وهو قزم مقوس الظهر . سأل بعصبيـــة :

ـــ من أين يأتى هذا الهواء ؟

أجفل الجميع ، ونظروا إليه بعجب .

قال حامل الماجستير أمين ، وهو ذو أنف ضخم دائم الاحمرار ، ويتعاطى السعوط مما ينفر الآخرين منه :

ـــ أى هواء ؟ أنا لا أحس بشيء .

ثار جراب الرأى :

ـــ أنت لا تحس بشيء على الإطلاق ، أيتها الحشرة . يمكننى أن أشعر به . إنه تيار بارد .

وقف على المقعد . جال بنظره متطلعاً حوله . ثم مد يده ، وأغلق الكوة اليمنى بعنف :

ـــ يا للغباء ، ما الجدوى من حجب الضوء عن المنافذ ، إذن ، ما دمتم تتركون الكوات على هذه الحال ؟!

تثاءب أبو نعجة ، فبدا حلقه مثل بئر سحيق ، وقال بلا اكتراث :

ـــ إنهم لا يرون بصيصاً من الضوء يتسلل من مجرد منفذ واحد .

احتج عليه جراب الرأى :

ـــ لا تكن مجنوناً ، أيها الخنزير. ألا تعرف أية تجارب تجرى من حولنا ؟ بواتق ، محركات ، أنابيب ، مواد حارقة ، جرذان . لو حدث أن أفلت أحد تلك الجرذان خطأ ، وجذبه الضوء إلى هنا ، ستتطاير أشلاؤك قبل أن تنبس باسمك !

هز أبو الخيرات الأعرج رأسه المضغوطة مصدقاً على كلام جراب الرأى بشـــدة :

— هذا صحيح ، يا رجل . أنا لا أحب أن أسخف ، وحتى السخفاء .

ثم خفّض صوته ، وسأله هامساً :

— لكن قل لى ماذا حدث فى جهاز الأشعة ؟

— تقصد جهاز التفجيرات ؟ أحيل إلى المعاش لعدم وجود قطع غيار .

ثم أردف مستدركا :

— لا أعنى أن قطع الغيار غير متوافرة . لا ، كل شىء متوافر فى الأسواق على أى حال، كل ما فى الأمر أن الجهاز من طراز قديم. عفا عليه الزمن .

ابتسم عنترة بخبث ، وهو شاب أشقر بعين واحدة ، وقال :

— كنت أحسبك ستقول أن قطع الغيار غير متوافرة .

ثم استطرد قائلا :

— فى الحق أنك بارع فى المراوغة والتلصص واقتفاء الأثر . قدك الضئيل وجسدك المنكمش يساعدانك على ذلك .

ضحك أبو الدجاج ، وهو ذو وجه شاحب غاية الشحوب ، تسيل على جبينه فى تراخ قطرات من العرق ، وسعاله لا ينقطع . ثم قال :

— لا ، لا ، يعتمد الأمر على الجسم ، بل على التربية . يستطيع البيت أن يقوم بدور هام فى إعداد البرامج الخاصة بتربية الطفل الموهوب .

أخذ حامل الماجستير أمين قرصة من علبة السعوط . دسها فى منخاره . اغرورقت عيناه ، وقال :

— أتعرفون ، أيها الرفاق ؟ هذا الولد مؤمن موهوب حقاً . إنى أعرفه جيداً منذ صغره . فقد التحقت بهذا البيت بعد وفاة أمه بقليل . إن لديه قدرة فائقة على الملاحظة ، والاستنتاج ، والتعميم ، والتجربة ، وفهم المعانى،

والتفكير المنطق ، وإدراك العلاقات .

انبرى أبو نعجة يرد عليه :

ـــ لكنه للأسف ميال إلى المقاومة إذا وجد فى موقف يغريه بالغش .

سعل حامل الماجستير أمين بشدة . مسح أنفه بكمّه .

استطرد أبو نعجة :

ـــ وليس عنده استعداد لتقبل حقائق الموت . هو دائم قلق ، يطارده شعور بعدم الاستقرار ، ميال إلى الانزواء . لا يشعر براحة سوى مع تلك الملعونة . لو فُصلَ بين جسديهما لما أصبحا منفصلين حقاً . إذا مازاد الحب عن حده أضحى خطيئة .

بصق على الأرض .

قالت حليمة ، وهى تجمع الأقداح الفارغة :

ـــ إنهما مرتبطان أحدهما بالآخر . يتبادلان النظر، ويشعران بالسعادة .

قال حامل الماجستير أمين :

ـــ وتارة أيضاً يسبب أحدهما الأذى للآخر .

خفض صوته :

ـــ ويصل به الحد إلى أن يكرهها . يلقى فى وجهها كلاما قاسياً . هذه نقطة جديرة بأن ندرسها، ونستفيد منها ، لنخلص، لننقذ أجورنا ، لنصبح بشراً من جديد . ما الذى نأخذه منهم جميعاً سوى الشتائم وسوء المعاملة ؟ عمل

كثير ، ولا طعام . لحم مفروم نتن . نفايات مقيتة لاتليق إلا بالخنازير .
لعنة الله عليها !

بصق مشمئزا ، وتناول نتفة أخرى من السعوط .

واصل جراب الرأى الحديث قائلا :

ـــ أتعرفون ماذا تنتظر هذه الساحرة اللئيمة ؟ شيء لاينبت إلا من قلب امرأة . إنها تنتظر اللحظة التى لن يستطيع أن ينبس فيهـا بكلمة أو يومىء بإيماءة إلا وحدّستها مقدما . عندئذ ستكون رهن إشارته .

انخرط أبو الدجاج فى نوبة من السعال الحاد .

عطس حامل الماجستير ، وقال بلهجة الواثق من علمه :

ـــ أتيحت لى فرصة القيام بدراسة ميدانية لقلب المرأة ، أيها الرفاق ، وأستطيع أن أجزم أنها بذلك تحطمه .

انبرى له جراب الرأى مسفّهاً :

ـــ تحطمه ؟ لكنه غير موجود . أعنى غير موجود خارجها . أقسم لك بكل زبانية جهنم أنهما ملتحمان . عندما كانا صغيرين كانا يلعبان معاً ، وكانا سعيدان لكن هذا زمن بعيد، والطفولة لم يعد لها وجود . ولّت، وولت معها تلك السعادة الطـاهرة العميقة ـ التى لانعرفها ـ وحل محلها العار والخجل .

عقب أبو نعجه قائلا :

ـــ سيأتى اليوم الذى يفلت من براثنها حتما، ويخرج من ظلها . أليس رجلا ؟

سفه عنقرة من قوله :

ـــ ياقلة خبرتك بالرجال . ثم أين يمكن أن يذهب ؟ لو كان ثمة مقصد له لرحل منذ أمد طويل .

بصق أبو نعجة على الارض :

دفع رئيس الخدم الباب . دخل ، وأغلق الباب خلفه بسرعة :

ــ الريح فى الخارج تولول كالمجنونة . المطر غزير . لم يسبق أن أمطرت السماء بهذا الشكل .

نفض المطر من على ملابسه .

هرعت إليه حليمة بقدح من الشاى الساخن . رشف رشفة طويلة ، وقال :

ــ وُجدت العظام مدفونة تحت السور البحرى . التنقيب جار . بقية الزملاء هناك للمعاونة فى طمس الحقائق . لدينا أوامر بأن نجابه كل موقف بما يتناسب وظروفه .

قال أبو الدجاج :

ــ كان الأجدر أن نترك جثته للغربان تنهشها .

عقب أبو نعجه قائلا :

ــ حمدا لله ، أنه ميت الآن . لم تعد عيناه الزجاجيتان تنظران إلى .

أشاح بوجهه مسترسلا :

ــ أود أن أنساهما .

قال له رئيس الخدم بلهجة صارمة :

ــ يبدو أنك مستجد . الأمر فى منتهى الوضوح . كلما اعتدت الأشياء وألفتها كلما سَهُلت حياتك .

ــ خُيل إلى أنه كان يتحرك ، ينتفض ، يتلوى ونحن ننزله فى الحفرة .

جرع رئيس الخدم قدحه كله دفعة واحدة :

ــ لكن ليس هذا ما أريد أن أحدثكم عنه .

قطب جبينه لحظة محاولا أن يتذكر أمراً :

ــ آه : مضاد المادة . أجل . هذا مايسعى إليه العجوز سيدنا .

تساءل أبو الخيرات مستفسرا :

ــ يقال أن هذا المضاد خُلقَ ساعة خلق هذا الكون . هل يمكن أن يولد الشر مع الخير فى ذات اللحظة ؟

رمقه رئيس الخدم بنظرة حادة :

ــ سؤال لا جواب له . كل عيشك واسكت .

صدّق عنقرة على هذا الرأى قائلا :

ــ المرء مطوى تحت لسانه . ليس لنا شأن بأى شىء .

وتبعه جراب الرأى مؤيداً :

ــ لا يزال المرء فى سعة من أمره ما لم يقل أو يفعل . نحن صفحة بيضاء ، ولُيكتبَ عليها ما يُكتب .

— ٧ —

جرى مؤمن لاهثاً . صعد الدرجات مهرولا . ثم طرق الباب بشدة .

نهضت نوارة من مقعدها . وقفت فى مكانها متوترة ترقب الباب .

تعالى صوت مؤمن من الخارج ملحاً :

ــ إفتحى . أرجوك ، بسرعة !

هرعت نوارة إلى الباب ، وفتحته .

إندفع مؤمن داخلا . ولما كانت ذراعه اليسرى قد بُترت عند الكتف

فقد تدلى كمه منهدلا إلى جانب المعطف الثقيل الذى يرتديه، ومضى يتأرجح مصطدماً بجسمه كلما أتى بحركة .

بدا مؤمن كما لو كان قد كبر عشر سنوات ، إذ تهدل كتفاه كما لو كانا قد أثقلتهما الهموم .

جزعت نوارة عندما رأته :

ـــ مؤمن ! مالك تلهث ؟ !

كان العرق يتصبب من جبينه ، وقد جحظت عيناه .

تشبث بها مؤمن ، وهو يتطلع خلفه نحو الباب فى ذعر شديد .

ـــ ماذا دهاك ؟

أجاب مؤمن بصوت مضطرب :

ـــ أنهم يطاردونى .

وتوسل إليها :

ـــ إغلق الباب .

ثم صرخ :

ـــ أسرعى ! أسرعى !

دفعها نحو الباب . ثم تراجع إلى الحائط القصى .

ذهبت نوارة إلى الباب مهرولة ، وأغلقته .

إرتاح قلب مؤمن قليلا .

سألته نوارة :

ـــ هل أغضبتَ أحدا؟

ـــ آه ، كادوا يلحقون بى !

إرتكنت نوارة بظهرها إلى الباب ، والتفتت إلى مؤمن مستفسرة :

— منذ الذي يطاردك فى مثل هذه الليلة المقمرة ؟

إرتعش صوت مؤمن :

— لو كانوا لحقوا بى . . آه . . لا بد أنهم كانوا . .

— لكن من هم ؟ هل ضايقت الحكام؟ أم لعلك أثرت الحسد فى قلب أحد؟

أردف مؤمن ، كما لو كان لم يسمع أخته :

— أطلقوا فى أعقابى جوادا جامحاً إندفع فى الطريق يعد ورائى .

سُمِعَ صهيل جواد من بعيد جدا .

— كان صهيله يصم أذنى ، وقد لمعت فى الظلمة عيناه وأسنانه . لمعت . لمعت .

مسح مؤمن شفتيه الجافتين بكمه .

فتحت نوارة ذراعيها ، ورفعتهما فى وقفة مموهة :

— بالله عما تخاف ؟ ممن تخاف ، يا مؤمن ؟

— منهم ، من أولئك الذين يطاردوننى .

قالت نوارة مستفسرة ، كما لو كانت تجرى تحقيقاً :

— ومن هم مطاردوك ؟

قال مؤمن :

— أنت لا تعرفينهم .

ثم استطرد متوسلا :

— صدقينى . طاردونى .

وضع يده على أذنه يرهف السمع :

— لازلت أسمع الصهيل ، أسمع السنابك على صخر الطريق .

عاد صوت الجواد يعدو من بعيد جدا .

إبتلع مؤمن لعابه ، وقد جف حلقه .

ذهبت نوارة ، وأحضرت له كوبا من الماء ، تجرعها بلهفة . ثم عادت الأخت تسند ظهرها إلى الباب من جديد .

تراجع مؤمن مبتعدا ، ولا زال جاحظ العينين ، والرعب مستحوذا على حواسه .

مضى يسرد قصته . كانت كابوسا مزعجا . العاصفة شديدة ، والليل قاتم مقبض ، وكان يجثم على البـــلدة كلها شعور خفي كئيب ، كما لو كان الجو ينذر بشر سيحيق بالوجود .

نظر مؤمن إلى أخته متوسلا :

ـــ بالله ، أغلق النافذة ، يا نوارة !

ـــ أنها مغلقة .

نظر مؤمن إلى النافذة المغلقة بتوجس . حقا ؟ خيل إليه أنها ليست مغلقة !

ـــ إذن أحكمى إغلاقها . أتوسل إليك .

ذهبت نوارة إلى النافذة . وتأكدت من احكام اغلاقها .

ـــ حسنا ، حسنا ، يامؤمن، فليطمئن قلبك .

واصل روايته . كانوا فى ثيابهم القاتمة كسرب من الغربان، يتطلعون إلى البحر ، إلى مياهه السوداء كالمداد ، وإلى الأفق المعتم .

إزداد صوته إرتعاشا :

ـــ بينما كانت هى . . كانت هى . . تقف متشحة بثوبها الأبيض الوضىء

تركز ضوء القمر المتسلل من الخارج برهة على ثوب نوارة الأبيض .
ـــ على مبعدة منهم ... : كانت تحدق فى الظلام . كانت عيناها واسعتين مذهلتين .

صعد ضوء القمر وغمر وجه نوارة ، بينما أخذ ضوء الغرفة فى الخفوت .
ـــ وكان فمها مزموما كما لو كانت تغالب الصراخ . كان شعرها الأسود الطويل طولا يتهدل على كتفيها ، ويتدلى على الأرض ، ويختلط بظلمة الليل .

علقت نوارة على روايته باستخفاف :
ـــ يحدث لك ذلك كلما عدت من عند طبيب الأسنان ، يا مؤمن .
ـــ كانت هناك ، يا أختاه . أقسم لك .

استفسرت نوارة ، كما لو كانت تريد أن تعرف ما إذا كان يعرف ما تعرفه هى جيدا :
ـــ من هى ، يا مؤمن ؟

مضى فى روايته ، كما لو كان لا يسمعها :
ـــ كانت تحـــدق فى الظلمات ، حزينة . فى الخلف كان البيت الكبير تحجبه أغصان الشجر التى أحنت الريح هاماتها ، من كل النوافذ تنبثق الأنوار ، تنبض بالرغبة العارمة ، والخوف البهيم .

تأهبت نوارة .
ـــ ثم أخذت تتقدم نحوى . تتقدم نحوى .

أخذت نوارة تخطو نحوه خطوات بطيئة . شُحِنَ سكون الغرفة بأنفاسه اللاهثة ، وهو يمضى فى سرد روايته :
ـــ مدت ذراعيها نحـــوى . تسلل إلىّ رعب مباغت . كانت عيناها

كالكهوف السحيقة . كان الجو من حولى مشحونا بالخراب وبالأرواح الغريقة . طغى الرعب على قلبي والعذاب ، فأطلقت صرختى ، واستدرت على أعقابي أجرى . . أجرى . . أجرى . هاربا من محنتى . لم أجسر على الإلتفات خلفى . . نظراتها تلاحقنى ، وتنفذ من عظام ظهرى

ثم أضاف بنبرات ثقيلة :

ـــ كنت مشدوداً إليها .

كانت نوارة قد اقتربت منه كثيراً ، فتوقفت وأمسكت رأسها بيديها فى ألم .

ـــ لكنى كنت أجرى ، وأجرى . . اجتزت الجسر ، والسحب الهاربة تردد صرختى .

عادت نوارة إلى حالتها الطبيعية ، وقالت لمؤمن مهونة .

ـــ فلتدخل السكينة إلى قلبك ، يا حبيبى .

أمسك بيديها راكعا :

ـــ بالله ، هل الأبواب محكمة الإغلاق ؟

تلفتت حولها :

ـــ أجل ، والنوافذ أيضا .

ـــ كلها ؟

لكن هذا خليط من . . . هل كان الخدر كثيراً هذه المرة ؟

ـــ مخدر ؟ ! أقسم أنى مطارد . العيون فى السماء كثيرة ترقبنا من بعيد وتطاردنا صرختى أضحت امرأةً تعدو فى بيداء فسيحة ، وقد ألصقت من فرط رعبها يديها إلى رأسها .

أشار إلى أحد الأركان :

ــ ها هي الغرفة الحزينة . ترفرف عليها روح أمنا الحبيبة . يرقد جسدها هنا في صمت . . .

أجهش بالبكاء . لكنه ما لبث أن عاود الكلام بصوت متهدج :

ــ . . . في صمت أبلغ تعبيراً من كل الكلمات في الوجود . . . عندما القوا الحجر الثقيل في هيروشيما ماتت أمي .

أخذت نوارة بيده في حنان وأنهضته :

ــ تعال إلى . تعال ، يا بني ، إلى صدري ، بين أحضاني . صم أذنيك واسترح . اغلق عينيك . اهدأ ، ولا تسمع سواي

ذهبت به إلى كرسي . جلست عليه ، وركع هو مسنداً رأسه إلى حجرها :

ــ أنا فحسب . أنا عيناك وأذناك ، وأيامك كلها . دعك مما يحدث في الخارج . أنا أنفاسك . المهم ، لنا الداخل ، وليقل الهامسون في في القوارب المقمرة عنا ما يقولون .

تنهد مؤمن بارتياح ، وأغمض عينيه مستسلما :

ــ لتكن مشيئتك . أنت تجمعين أشعتي وتكثفينها ، وتجعلين من الشعاعة ضوءاً ، ومن الضوء منارة .

ــ سيزول الكرب غداً . إنه مجرد سحابة عابرة . أرهقت نفسك في الآونة الأخيرة . كل ما يلزمك بعض الراحة ،وطبق من الحساء الدافىء .

رفع إليها مؤمن بصره بنظرات ملؤها ما في نظرات الشهداء :

ــ واحسرتاه ، يا أختاه . ليس التعب هو وحده الذى ألقى بى الليلة فى هذا

الاضطراب . ثمة أمور أخرى تجرى ، يا أختاه ، فى الخفاء . ها أنا أعود إليك فى جنح الليل ، وأثير فيك الرعدة ، وأبعث فى قلبك الشقاء . ليس الذنب ذنبي ، على أى حال .

ــ ربما كان الذنب ذنبي أنا . دعك من تلك الملوسات، يا حبيبى . قد مسك القمر بلوثته ، وابتعد عنك الأصدقاء القدامى بسبب توجسك الخيفة منهم ، ومقاطعتك لهم .

إنتفض مؤمن ثائراً :

ــ الأصدقاء ؟ !

ضحك بشدة :

ــ ليس هناك أصدقاء ، بل غيلان ومسوخ ومردة ! غيلان ومسوخ ومردة ! غيلان ومسوخ ومردة !

ضحك بشدة ضحكا متواصلا .

اظلمت الغرفة تماماً .

تعالى من الخارج جلبة وصهيل الجواد .

ثم دخل الخدم .

توقف مؤمن عن الضحك المخبول . هرعت الأخت إلى أخيها ، حوطته بذراعيها لتبسط عليه حمايتها من عدوان القتلة المقنّعين ، ولتحس بدورها إلى جواره بالأمان . تراجعا إلى ركن قصى ، انزويا فيه مترقبين .

إتخذ الخدم وقفة تهديدية ،ورفعوا بنادقهم إلى أكتافهم استعداداً لإطلاق الرصاص على مؤمن ونوارة

بعد برهة، رفع مؤمن ذراعيه إلى أعلى فى تحد واحتقار. إنكمش الخدم وتقوست ظهورهم .

صرخ فيهم مؤمن :

ـــ أنتم مدججون بالسلاح ، ونحن أعزلان من كل سلاح ، لكنكم جبناء تنكمشون فرقا . أنظروا ! تقلصت أصابعكم على زناد البنادق .

أطلق ضحكة إزدراء ، وأردف يقول :

ـــ لا نخشى إرهابكم . ها أنا أتلقى رصاصاتكم الجائرة فى صـــدرى . إضربوا . صدرى ينبض باحتقاركم ، أيها المستعمرون الغزاة !

وبصق على الأرض .

دب الارتباك بين الخدم . تراجعت صفوفهم مثل لصوص يتلمسون الفرار. انسحبوا وظهورهم إلى الباب فى ذلة وخوف وخزى ، ولا زالوا يشرعون بنادقهم ويصوبونها إلى الأخ وأخته . ثم ما إن اقتربوا من الباب حتى خرجوا منه مهرولين .

— ٨ —

تنهدت نوارة بارتياح :

ـــ يالهم من حشرات دنيئة .

قال لها مؤمن ولا زالت أنظاره معلقة بالباب الذى خرجوا منه :

ـــ إذا نالونى ، فلن يكون ذلك من الأمام . ان أُطعَن فى صدرى .

ـــ ألا زلت تريد أن تعيش؟

ـــ أنى متفائل . أومن بأننا يجب أن نتشبث بالحياة . ليس وجودنا عبثا لا طائل من ورائه .

ـــ الحياة رسالة ؟

ـــ حتى نتعاون على أن نموت . عزاؤنا أننا نشيّع بعضنا بعضاً إلى القبر . إذا كنا ننجب أولادا فلمتعتنا نحن ، أما هم فيدفعون الثمن غالياً ، وإذا كنا نموت فلأننا لا نفهم معنى الحياة .

ثم دوى صوته صارخاً :

ـــ أجل ، يا أختاه ، أننا لا نفهم معنى الحياة !

والتفت إلى الجدران يشير إليها :

ـــ ولا أنتم ، يا من تتنفسون هناك .

تعالت جلبة الخدم من الخارج ، وبدت أشباحهم خلف النوافذ . التفت مؤمن ونوارة إليهم برهة ، ثم اختفوا .

ـــ هؤلاء الخدم أصبحوا لايطاقون . لا أعرف ما الذى يمنعنا من طردهم !

ضحك مؤمن ساخراً :

ـــ حقاً ، لا تعرفين ؟

ـــ لا أفهمك . انهم يدخلون شيئاً من النظام فى هذا البيت فحسب . يجعلون مطالب الروح الاجتماعية قابلة للتحقيق . يحولون الأمور من مجرد أمان إلى برنامج عمل . هذا كل ما فى الأمر .

وأضافت نوارة ضاحكة :

ـــ ثم لا تنس « التبن لهم فى النهاية والشعير لأسيادهم » .

ـــ أرجوك ، يا أختاه ، ألا نعود إلى هذا الموضوع .

ـــ وضحّ . هيا ، قليل من الشجاعة .

ـــ حسناً ، طالما تصرين . هؤلاء ، فى الواقع ، معينون لحايتنا . يجب أن

نحتملهم حتى نتحاشى ما هو أسوأ .

واستطرد ساخراً :

ـــ ظهورهم إذن ليس عرضياً ، بل يتوقف عليهم مستقبل هذا البيت .

ـ هؤلاء رجال ناجحون رجال إدارة وطب وعمارة ، وكلام كثير ، ومعارف وتجارة . مازلت لا أفهمك . أية سنة تؤلمك ؟

ـــ دعك من المراوغة . إذا نظرت داخل الصدور ستجدين تيهاً مظلماً ، ليلا بلا نجوم ، سماء تخيم عليها الغيوم . أنت تفهمين جيدا . لحظات عمرهم أنياب ومخالب ، ثمار بلا رحيق . أغصان جافة بلا زهور ، شموع منطفئة .

واستطرد يقول :

ـــ كل ما يبغونه منا هو ثيابنا القديمة ، بضع رشفات من ثمالات أقداحنا ، أن يلبسوا أحذيتنا ، ويتمنطقوا بأحزمتنا ، وينامو في أسرتنا الحجرية . مخلوقات فظيعة لكنها جوفاء ، مخلوقات ضخمة جرمة لكنها حبيسة تعسة . الوجود من حولهم فضة وذهب ، مناصب وأوسمة ، مكاسب وتخطيات ، مؤتمرات وتحديات .

بدت نوارة كما لو كانت قد جُرحت :

ـــ ما من عصفور يغرد في القلوب ! ما من فراشة تحط على الذنوب ! ما من ضياء ؟ ! ما من أمل ؟ ! أوه ، هذا اتهام ! الحراسة مفروضة عليك؟

ـــ على الأقل ، أنت لا تمانعين . انهم امتداد .

ـــ لا تكن قاسياً في حكمك على الآخرين . التعود على الطاعة يكسب الكثير . أننا نعرف بعضنا بعضاً خير معرفة . التمرد ليس مثمرا إذا أضحى حالة دائبة . أتذكر بما كانت تنادينا أمنا ، أنا وأنت ؟

ضحكت نوارة ضحكة قصيرة لا تخلو من عصبية :

ـ الحبيبين !

تراقصت على الحوائط أضواء وردية حانية .

ووفدت من بعيد نغمات عاطفية خافتة .

صدّقت نوارة على قوله بصوت خفيض :

ـ أجل ، كانت تنادينا بالحبيبين !

وبعد برهة صمت دافئة ، أردفت تسأل مؤمن :

ـ أتذكر الكرمة التي كنا نجلس في ظلها ؟

ـ كانت كرمة عريقة خـــيرة . لازلت أذكر حباتها السوداء تلمع في خيالي .

غرقت في الذكريات .

ـ وكنا نسير على الشاطىء ، أليس كذلك أيها الحبيب ؟ ونرسم على الرمال مستقبلنا . وعندما كنا نجتاز المياه الزرقاء ، ونصعد إلى الصخرة كنت تمسك بيدي هكذا .

أمسكت بيده ، واستطردت قائلة :

ـ وكنا نشعر أننا ملتحمان ، ولن نفترق .

ـ كنت تولين عطفك ، وتبسطين على حمايتك مثل العنكبوت .. عندما كنت أكسر شيئاً كنت تتحملين مسئوليته ، وكانوا يضربونك بدلا مني .

مضت نوارة تهمس بعاطفة وولة :

ـ آه ، حبيبان . أجل . ما أجمل ذلك .

تنهدت ، وأردفت تقول :

ــ حكايات قديمة . أحجار استقرت في قاع البحيرة .

خيمت برهة صمت .

ابتعد مؤمن عنها بضع خطوات ، وقال :

ــ في أعماقك رغبة دفينة . كل هذه الطيبة نوع من المطاردة .

علا صهيل الجواد من بعيد .

صاحت نوارة مستنكرة :

ــ أنا أطاردك ؟ ! أحاصرك ؟ !

وقالت مؤكدة :

ــ أنا أحبك . أحبك كما تحب الأمواج الصخور ، كما تحب البلابة الجدار ، كما يحب الليل وقع الأقدام على صخر الطريق . هل عرفت كم أحبك ؟

ــ أنت من الذكاء أنك تخفين رغباتك . كل أسرتنا مصابة بآفة الذكاء .

دفنت نوارة وجهها في راحتيها :

ــ ماعدت بقادرة أن أمر أمام المرآة . إنى أفر منها ، ومن كل المرايا . المرآة لاتكذب . إنها صادقة صافية ، مثل نظرات مؤمن الذى كنت أعرفه .

استغرق مؤمن في التفكير :

ــ إلى أى حد أنت متغلغلة فى ! يسطع على نفوذك ، وسرى فى تيارك . سرت فى رعشتك .

أخفضت نوارة بصرها ، وقالت بصوت متهدم :

ــ يقولون أنك لست أخى .

صاح مؤمن رافضاً هذه الفكرة :

ــ لكنك أغلى مخلوق عندى فى الوجود .

ثم مضى يقول بصوت لا يخلو من الشجن .

ـ إننى لا أحسن التعبير . لا أنتحل لنفسى الأعذار ، كما ترين . فلو نزلت نعمة الله يوماً فى هذا البيت الكئيب فلا أعرف ماذا ستكون إن لم يكن ماتعطنيه هو أنت .

أشاح عنها بصره وقال :

ـ أرجو ألا أكون قد جرحتك بكلامى .

ـ كلا ، كلا ، قل ماعندك ، فقد منحتنى أكثر مما كنت أرومه حتى فى أشد لحظات صباى طيشاً .

رفعت عينيها ، ونظرت إليه نظرة مفعمة بالحزن والاشفاق والقلق .

تنهد مؤمن ، وغرق فى تأملات بعيدة :

ـ ماذا تريدينى أن أضيف ؟ سبرت أغوارى ، وتعرفين أعماق أفكارى ، كل خلجاتى . ربما كنت تعرفيننى أكثر مما أعرف أنا نفسى .

خيمت برهة تأمل صامت .

ثم أردف مؤمن يقول :

ـ يخيل إلى أحياناً أن كل شىء هو أنت . أنت المرآة ، ينعكس على صفحتها خيالى .

قالت نوارة بوله :

ـ بل أنت مرآتى .

تعالت رنة موسيقى من الخارج .

وأجاب مؤمن :

ـ لايصرخ فى داخلى أى هاتف بمعارضتك . أصبح الأمر عادة . تصرفاتى انعكاس لما تريدين أنت . لو استطعت أن تجدى مرآة ماذا سترين ؟

أخفت نوارة وجهها فجأة بين يديها . تقوس منكبيها ، وتهدج صدرها .
أمواج هائلة تلاطمت فى أعماقها :
ـــ مخيف هذا الذى تقول! مخيف حقاً ! ذبابة قذرة لصقت بطبق من العسل، هذه أنا . أخشى النظر فى وجهك عندما أسمعك .
بقى وجهها مدفوناً بين راحتيها .
اقترب منها مؤمن ،وربت على كتفها فى حنان . قال ملاطفاً:
ـــ دعينا من الخجل ، ولنكف عن إخفاء وجهنا الحقيقى .
رفعت يدها إلى فمه لتمنعه من الكلام :
ـــ أسكت، أيها الحبيب . أنت تتكلم مثل مريض أو طفـــل. هل فقدت صوابك ؟
ـــ وهل لمثلك على شىء ؟ إن أستطيع فلا أستطيع أن أمسك بسوء . إفهمينى . هل تخشين سماع الحقيقة ؟ إن كنت أتهم أحداً فإنى أتهم نفسى . كنت على الدوام بحاجة فى أعماق المظلمة إلى يدك النحيلة السمراء تقودنى ، وتلوح لى من بعيد . كنت أحس عندئذ بالحرية فى أن أفكر ، وفى أن أتصرف ، وفى أن أكون ذاتى .
ثبت أنظاره فى عينيها ، وضحك ضحكة مستخفة :
ـــ أعرف أنك ستنكرين .
دافعت نوارة عن نفسها بحماسة :
ـــ لا ، لا ، هذا غير صحيح . هل أنا هذا المخلوق البشع ؟
وبكت .
أشاح بوجهه :

ـ لا أحتمل أن أراك تعيسة ، يا نوارة .

ثم التفت إليها :

ـ تقولين على الدوام أنك لا تبكين .

كفكفت دموعها بسرعة ، وعدلت عن البكاء . ثم رفعت رأسها بعزم وصلابة :

ـ أنا لا أبكي أبداً ، ولا أعتذر . أنت تعرف ذلك جيداً . الساحرات لا يذرفن الدموع ، وهآقيهن على الدوام جدباء .

لمعت عيناها بوميض غريب .

استفسر مؤمن بوجل :

ـ لم يبق في الإناء زيت ؟

ضحكت نوارة ضحكة مرتبكة :

ـ إنها لعبـــــة .

ثم مضت تقول بصوت ثقيل :

ـ كل شيء لعبة ، لعبة كبيرة ، ولا شيء غير ذلك .

جمدت قسماتها ، وشرد بالها . جاء صوتها من بعيد :

ـ أين تذهب الدموع ؟ أين تذهب الزفرات ؟ أين تذهب الشهقات ؟ بل أين تذهب الصرخات ؟

تنهد مؤمن ، وأجاب :

ـ بحر الصمت يبتلع الصرخات والضحكات والنواح .

مسح جبينه كما لو كان يطرد كابوسا مزعجاً .

ـ حتى المكان مدلول رقمي . لاشيء ساكن جامد الحركة جوهر الوجود . الحركة رنين ، ومضة ضوء ، عاطفة ، دورة من المغلق إلى المفتوح .

هزت نوارة رأسها مصدقة :

ـــ لولا ذكاؤك ، يامؤمن ، لما تفوقت فى الرياضيات .

مدت يدها إليه :

ـــ اعطنى معادلاتك ، ياحبيبى . سأكتبها لك على الآلة الكاتبة كالمعتاد .

مضى مؤمن إلى الباب :

ـــ انتهى عناء اليوم لنذهب إلى القبر ، وإذا أكلتنا الديدان ونهشتنا العقارب ، فمن القبر بدأنا . وإلى القبر نعود .

خرج مؤمن .

بقيت نوارة وحيدة . جلست على المقعد . وقد خيم الصمت على الغرفة وغرقت فى العتمة الزرقاء .

— ٩ —

دقت من بعيد ساعة البرج المهجور معلنة التاسعة . كان هذا ميعادها كل مساء .

عند الباب الخارجى ، تحت شجرة جرداء فى الميدان ، جاءت امرأة ضخمة البدن مترهلة مثل بقرة عجوز ، حافية القدمين ، تلبس ثوباً طويلا فضفاضاً كان ذا لون زاه وبهت ، وتعصب رأسها بمنديل لامع ذا نقاط حمراء وصفراء لايبدو أنه قد غسل منذ أمد بعيد .

جلجلت العجلات الخشبية على أسفلت الطريق . ثم بدت البقرة العجوز تدفع عربة من عربات الأكل ذات صندوق خشبى زجاجى ملون . وقفت

بها عند السور الحجرى . نادت على بضاعتها نداءات مديدة منغمة. هشّت الذباب ، فعلا سربُه فى ضوء مصباح البترول المعلق فى سقف العربة . ثم عاد وحط من جديد على كومة الأرز بالبصل .

أقبل عليها الخدم يشترون ، ويتعشون من طعومها : أرغفة محشوة بالكوارع والكبد ، سلطة بالخل والزيت ، أقراص كبيرة من الطعمية ، قرع مقلى ، مكرونة بصلصة حمراء داكنة ، عدس كشرى .

انكب الجمع على التهام الطعام منشغلين بما يملأ الأشداق والبطون .

شرب الخادم الرابع من القلة ذات الرقبة المكسورة ، وسأل جاره :

ـــ ماهذه الحكاية التى جئت بها الليلة ، ياجراب الرأى ؟

قضم جراب الرأى قضمة كبيرة من رغيفه :

ـــ كل البلدة ترويها ، على المقاهى ، فى الصوامع ، على النواصى ، وفى الحقول .

انبرى الخادم التاسع ، وهو قصير غليظ عابس الوجه ، مؤكداً :

ـــ بل وفى الدوار ، والبندر ، وفى غرفة المأمور . زحفت على بطنى ، وسمعتهم يتهامسون .

دهش جراب الرأى ، واغتاظ بعض الشىء إذ اقتضى الأمر أن يشاركه آخر فى حكايته :

ـــ سمعتها أنت أيضاً ، هيه ؟ إذن ، أبو نعجه يمكنه أن يقول لكم ما إذا كنت أكذب أم لا .

صاح بعض الخدم :

ـــ أروها لنا ، ياجراب الرأى ، وحق الشيطان .

جمعت بائعة الكوارع الأطباق الفارغة .

مسح جراب الرأى فمه بكمه ، وبدأ يسرد روايته :

— كان يعيش فى الجزيرة مع زوجته .

سأله الخادم الرابع حامل الماجستير أمين :

— ما اسمها ؟

رد عليه عنقرة متبرماً :

— خضرة ، مارسيل ، نوارة ، لاتهم الأسماء . استمر، ياجراب الرأى، أرجوك .

استجاب جراب الرأى إلى تلك اللهفة المرتسمة فى العيون المحدقة إليه :

— كانت تبادله شغفاً بشغف . لكنها مالبثت أن ملّت حبه .

علق حامل الماجستير أمين على ذلك :

— هذا شأن النساء جميعاً .

أضاف أبو نعجة :

— والله ، زوجاتنا أزيار قميئة .

واصل جراب الرأى روايته :

— ضجرت منه ، فانشأت علاقات آثمة مع الثعبان .

تعالت همهمات الدهشة والاستنكار من صفوف المستمعين . صاح أبو الخيرات الأعرج :

— ياخفى الألطاف ! ياخفى الألطاف !

دارت البائعة عليهم تجمع النقود .

واصل جراب الرأى روايته :

ـــ ثم مع الوحوش الأخرى .

رفعت المرأة البدينة ملعقتها الصدئة الكبيرة ، وغرفت العدس الساخن في الأطباق . ثم وزعتها على الزبائن .

واصل جراب الرأى روايته وهو يرشف العدس من طبقه :

ـــ كانت تلتقى بهم عند الساقية ، وخلف الطاحونة ، وعلى الطريق الزراعى

تدخل أبو نعجة :

ـــ رأيتها معهم تحت الجميزة . أقسم على ذلك بعينى هاتين اللتين سيأكلهما الدود .

نظر إليه جراب الرأى ، وكتم غيظه .

تدخل أبو الخيرات فى الحديث مؤكداً :

ـــ مؤمن لم يكن معهم .

التفت إليه عنقرة :

ـــ أسكت . أيتها الحشرة .

التفت أبو الدجاج إلى البائعة وقد لوى وجهه :

ـــ هذه الكبدة تسبب لى وجع البطن ، يا امرأة . قللى من الفلفل ، وحق جهنم عليك .

قالت له البقرة العجوز ببلادة :

ـــ الصبر طيب . . الصبر جميل .

أدار جراب الرأى نحوه رأسه الذى يشبه رأس ثور . وقال له لائماً :

ـــ أمعاء مرهفة ، أيها القرد . عندما تسمع بقية القصة ان تكترث للألم الذي فى جوفك .

ثم مضى فى روايته :

ــ ذات يوم هجرت بيتها ورحلت . لم يحتمل الرجل الوحدة فى الجزيرة المهجورة مع تلك الوحوش التى أنجبتها المرأة من علاقاتها الآثمة . أخذ يجرى ملتاثاً على الشاطىء ينادى زوجته الآبقة صارخاً ، فترد الرياح على صراخه بصرخات مجنونة تجعله يسد أذنيه فى فزع مهول . وقـــد اتشحت السماء والأرض والبحر من حوله بحمرة قانية .

لم يقو أبو نعجة على الانتظار أكثر من ذلك . خطف الكلام من زميله جراب الرأى ، ومضى فى الرواية :

ــ لا أطيل عليكم . عادت المرأة إلى الجزيرة الزاخرة بأولادها المسوخ البشعة من خنازير ، وثعابين ، وقردة ، وطيور جارحة .

ضحك عنقرة قائلا :

ــ مثلنا .

انفجر أبو الخيرات الأعرج صائحاً :

ــ الدماء ! الدماء ! لابد من انتقام !

مضى أبو نعجة فى روايته :

ــ أحاطت به المسوخ البشعة أولاد الزوجة الخائنة . أحكمت قبضتها عليه فهو أبوها فى نظرها . حالت بينه وبين الفرار من برائنها . ثم افترسته ! ومزقت جسمه إرباً إرباً .

هجم جراب الرأى على أبى نعجة، وأطبق يديه على عنقه يخنقه :

ــ استرحت الآن ،أيها الضفدع الثرثار الغبى .

ــ ليست الحكاية ملكك وحدك ، أيها السكير النتن.

ـــ تريد أن تتبختر على الدوام كأنك دجاجة مذبوحة الرأس .

ـــ تصرفات تليق بالخنازير .

تماسك الخادمان .

مد عنترة ساقه فتعثر بها المتشاجران ، وسقطا على الأرض .

تصاعدت عاصفة من الضحك .

نهض جراب الرأى واقفاً على قدميه ، وقد احتقن وجهه غضباً . وثب على عنترة الذى لكمه على الفور لكمة قاضية .

ضرب حامل الماجستير عنترة . وضرب الخادم التاسع أبا الدجاج . وفى غمضة عين نشب شجار شامل . عم الهرج . وزخر المكان بجمع من المسوخ التى أطاح الحقد بصوابهم . وانهالت الضربات واللكمات والركلات والصفعات على غير هدى ، وتبودلت الشتائم :

ـــ نهابون ، صعاليك . نمامون ، أنتم ، أنتم لصوص تافهون ، مغتابون ، رعاع أدنياء ، قساة ، عديمو المسئولية ، مصاصو دماء . أنتم تستأهلون كلكم . كلنا . كلنا ضائعون ، ينخر فينا السوس ، مخابيل ، علينا اللعنة .

أطلقت البائعة فى هذا الخضم صرخة ، وركضت تجمع الأطباق الملقاة على الأرض من بين أقدام المتشاجرين . داس أحدهم على أصبعها . ولولت مثل كلبة تعوى . كتمت ألمها . هرعت إلى عربتها وقد استبد بها الذعر . وابتعدت بها مسرعة تندب ثمن العدس الذى ضاع عليها .

وفى النهاية ، لمعت كالمعتاد ومضة مطواه أشهرت عالياً فى ضوء القمر . وانبعثت صرخة ألم .

تعالى صوت الأمواج هادئة رتيبة من بعيد .

دقت ساعة الحائط معلنة الثانية عشرة .

جلست نوارة تعزف على عودها . تخلل عزفها فترات من الصمت والاستغراق فى الذكريات .

تنامى إلى سمعها وقع خطوات على الأرض الحجرية فى خارج البيت صاحبها نباح كلاب ثم دق الباب دقات متتالية .

نهضت نوارة . أسندت العود إلى كرسيها ، وما أن همت بالمضى إلى الباب سمعت صرير الباب يُفتح . تسمرت فى مكانها ، بينما خطا القادم بضع خطوات داخلا . أنه أحد الخدم المقنعين ، أو ربما رئيسهم يرتدى ملابس المماليك .

انحنى الرسول انحناءة خفيفة عندما رأى نوارة :

ــ طالب مساؤك ، يا آنستى . هل الدكتور موجود ؟

سألته نوارة بلهجة متوجسة جافة :

ــ من الذى يطلب أخى فى هذه الساعة المتأخرة ؟

ــ مندوب من والى الولاة ، ياآنستى .

ــ هل الأمر على هذا القدر من الأهمية ، أيها الرسول ؟ أنت تعرف أن أخى لايقابل أحداً هذه الليالى . وإذا كان الأمر متعلقاً ببعض تجاربه ، فهو لايبيع الآن ، ياسيدى .

قال الرسول بخشونة :

ــ قولى له ، من فضلك ، الأمر أهم من ذلك بكثــــير . أنه عاجل وسرى للغاية ، يا آنستى .

تعالت فى البهو خطوات ثقيلة بطيئة ، ثم ظهر مؤمن عند باب الغرفة .

عند ماراى الزائر الغريب وقف عند المدخل برهة :
— طاب مساؤك أيها السيد القادم . ماذا جئت تطلب ؟
إنحنى له الرسول ،وانسحب جانباً :
— سيدى الدكتور ، أنى موفد من جانب الوالى . جنابه العالى يعرض عليك عضوية « المجلس الفخرى » ويطلب منك الموافقة العاجلة ، حتى يتسنى الإنعقاد فى أوائل الأسبوع .
أُخذ مؤمن ، فلم يكن يتوقع مثل هذا العرض :
— عضوية « المجلس الفخرى » فى أوائل الأسبوع ؟ !
أجابه الرسول :
— أنه لشرف كبير ، أليس كذلك ؟
تحولت لهجة الرسول إلى لهجة آمرة :
— عليك بمشروعاتك فى الجلسة ، حتى تُناقَش وتُعتمد .
ظل مؤمن مأخوذاً من الأمر :
— أجهز أوراق ؟ !
قال الرسول كأن الموضوع قضية مسلمة :
— لا شك انك موافق أعرف أن تلك المعادلات . . .
قاطعه مؤمن بحزم :
— رويدك ، يا سيدى . الذى تدعيه شرفاً كبيراً أرفضه بحزم .
ثم أضاف بتشف وانتصار :
— فات وقت التنازلات .
ضحك ضحكته الملتاثة :

ـ كنتم تعتقـــدون أنى مجنون ، أليس كذلك ؟ منذ أن أشاع أولئك الأغبياء أكذوبتهم اللعينة عنى .

اقتربت نوارة من مؤمن، ولمست ذراعه محذرة :

ـ مؤمن ، أفق .

إلتفت إليها . وقال بشراسة :

ـ الكذب فى عيونهم . قرأته فيها .

تنصل الرسول مما يتهمه به مؤمن :

ـ أنت مخطىء ، يا سيدى ، أنى أثق بك فعلا .

نظر إليه مؤمن بحدقتين واسعتين ، وقال ساخراً :

ـ أجل ، أنت تثق الآن . ومنذا الذى لا يصدق ماتراه عيناه ؟

وواصل مؤمن كلامه ، كما لو كان يحلم :

ـ المركبة على وشك الإنطلاق . سيرونها عالية ، ذات مساء ، تسبح أضواؤها الخضراء والصفراء والزرقاء والحمراء فى السماء .

قال الرسول بلهجة يقينية :

ـ لن يستطيع أحد إيقافها . أراد من أوفدك أو لم يُرِد .

أجابه الرسول بجفاء :

ـ سنلحق بك .

ـ فات الأوان على الخونة . بينى وبينكم بحيرة ملآنة بالتماسيح .

ضحك مؤمن بشدة ، وأشار إلى النافذة :

ـ قُضِىَ الأمر الآن . أنظر خارجاً إن كنت تجرؤ .

ضحك الرسول غير مصدق :

ـــ أنظر خارجاً إن كنت أجرؤ ؟ ! لا شك أنك تمزح ، يا دكتور !

أدار مؤمن للرسول ظهره وجرى إلى النافذة يحاول فتحها .

انتهزت نوارة الفرصة . اسرعت تقترب من الرسول بخطى خفيفة .

ثم همست له :

ـــ أنه فى حالة سيئة الليلة . هو قادم من عند طبيب الأسنان . إرحل من فضلك . هذا خير ما يمكن عمله .

تمكن مؤمن من فتح النافذة ، فتدافع الهواء يعبث بشعره . أطل منه وقد استغرقته نشوة الإنتصار :

ـــ إنها راسية هناك . فى استطاعة أى شخص أن يراها من هنا بوضوح .

مضت نوارة تهمس بتحذيراتها للرسول ، وقد اختلطت همساتها بهدير البحر المتدفق من النافذة المفتوحة :

ـــ ليس ثمة شىء هناك . لا توجد أية مركبة على الشاطىء . صدقنى !

نظر الرسول إلى النافذة ، وهز رأسه :

ـــ آسف ، أنه يخاطب البحر .

ألحت نوارة فى الرجاء :

ـــ إبعد عنه . من أجل أمنا المتوفاة ، لا تمسه . أنها أحلام ، فكرة جنونية عن سفينة ضائعة ، وعالم لم يكن له وجود أبدا .

مال الرسول على نوارة . قال بصـــــوت خفيض ، وهو يخفى شفتيه القرمزيتين بيده كثيفة الشعر .

ـــ أعتقد ذلك . المهم الآن ما يمكن أن نقبضه نقدا .

ـــ أوه ، ما أدنأ الرجال . إبتعد !

تراجع الرسول مفسحاً لها الطريق . ذهبت إلى مؤمن . ربتت على كتفه ملاطفة حتى هدأ ، وثاب إلى نفسه . مضى إلى المقعد فى وسط الغرفة. لمح الرسول لا زال واقفاً .

ــ أوه ، لازلت ماثلا أمامى ، أيها الوافد الغريب ؟

حدق فيه مؤمن بعينين جاحظتين تراقص فيهما ظلال من الشك والخوف. هل كان هذا الزائر المريب هو الشبح الذى يؤرق نومه كل ليلة ، ويسمع حشرجته فى البالوعة ؟

كاد مؤمن أن يسأله متوسلا، لكنه استدرك . فات أوان الأحلام الآن

استجمع مؤمن شمل نفسه . شد قامته ، وقال بلهجة جافة :

ــ طاب مساؤك .

لم يتحرك الرسول ساكناً ، فصاح فيه مؤمن :

ــ أقول ، طاب مساؤك !

صُدِمَ الرسول ، وقد تذكر المهمة التى جاء من أجلها :

ــ أهذا قرارك الأخير ، ياسيدى ؟

التفت إلى نوارة ، ونظر إليها نظرة ذات مغزى :

ــ وأنت ، يا آنسة ؟

خاطبه مؤمن بإصرار :

ــ قلت لك طاب مساؤك !

مضى الرسول إلى الباب . وقف هناك برهة ثم استدار إلى مؤمن :

ــ سنندم .

ثم التفت إلى نوارة :

ــ ستندمان .

ابتسم لهما ابتسامة خبيثة :

ــ « ما أسعد الذين يحملون المحفة ! إنه لخير لنا أن تكون مملوءة من أن تكون خالية » دريهمات معدودة تصلح كل . . .

قاطعه مؤمن ، مصراً على طرده :

ــ هيا ، البحر ليس بعيداً من هنا .

رفع الرسول كتفيه وخفضهما ، كمن لا حيلة بيده . ثم خرج .

— ١١ —

عاتبت نوارة أخاها :

ــ ماكان يجب أن تفعل ذلك ! كان يجب أن تنتظر .

تمتم مؤمن باحتقار ، كما لو لم يكن قد سمع نوارة :

ــ يدعونى إلى عضوية « المجلس الفخرى » ! بالطبع أرفض ، ولو أمكننى أن أبصق فى وجه جناب الوالى لفعلت ، بلا تردد .

صدقت نوارة على كلامه ، وقالت :

ــ منذ متى يتعاون المخلصون مع . . .

أمسك مؤمن بيديها فى عنف . تقوس ظهره ، وصرخ فى وجهها :

ــ الأمر أدهى من ذلك !

انكمشت نوارة محاولة تخليص يديها . شدد مؤمن قبضته :

ــ أنت لا تعرفين ماذا فعل أولئك القوم ! أصدروا الأوامر لتحقيرنا . أطلقوا كلاب البحر فى أعقابنا ، نحن الذين سنصبح يوما من الأيام . . .

لم يكمل مؤمن جملته، كما لو كان قد نسيها ، وتنهد :

ـــ سامحهم الله !

ثم ضحك في مرارة :

ـــ وبعد كل هذا يأتون إلي طالبين أن أضع يدي في أيديهم ! يا لها من سخرية ! يا لها من سخرية !

أثناء انفعال مؤمن واستغراقه في سورة غضبه، دخل الخدم واصطفوا في أغوار الغرفة ، وقد عقدوا أذرعتهم على صدورهم ووقفوا في صمت مترقبين .

هدأت العاصفة التي اجتاحت عقل مؤمن ، وحلت محلها مرارة وأسى .

غرق مؤمن في لجة من التأملات ، وهمهم يحدث نفسه :

ـــ قيل لي في الحائط القديم باب صدئ . من خلفه حديقة غناء خضرتها أبدية . دققتُ الباب بكل شدة فلم ينفتح ، وظل الحائط القديم صامتا ينظر إلى بعيني أعمى .

تقدم نحوه رئيس الخدم ، وسأله في لهجة المحقق :

ـــ هل سألتَ لِمَ لم يُفتح الباب ؟

ـــ قيل لي : أنت لا تعرف كيف تطرقه .

ـــ سألتَ منذا الذي يعرف ؟

ـــ قيل لي : لا أحد !

مضى مؤمن يدور من خادم إلى آخر سائلا في لهفة وقلق ، مثل غريق يتلمس، وسط الأمواج، قشة :

ـــ لا أحد ؟ لا أحد ؟ لا أحد ؟ أ

صاح الخدم فى مؤمن بسخرية وقسوة :

ـــ بل أنت ! أنت ! أنت !

ثم تحولت لهجتهم إلى لهجة خضوع وضعة :

ـــ أنت ، يا سيدى . أنت ، يا سيدى .

وبعد برهة صمت سألوا :

ـــ بما تأمر ؟

استرد مؤمن سيطرته على الموقف :

ـــ تريدوننى أن أحكم ؟

ورد عليه الخدم :

ـــ بما يريده قلبك ، بما يرضاه عقلك ، بما تراه صوابا ، يا سيدى .

خيمت برهة صمت ، ثم استطرد الخدم يقولون :

ـ اشفق علينا ، ومر ، فنحن نطيع وننفذ .

ـ أمر غريب ، تريدون أن أحكمكم ؟

حنى بعض الخدم جباههم :

ـ نحن نحنى الجباه . نغض الطرف ، ونركع .

وركع البعض .

ـ الزمام فى يدى ، إذن ؟

ـ أجل ، الحبل حول أعناقنا مزموم . كُتبَ علينا الخضوع .

خيمت برهة صمت ، بعدها مؤمن صائحا فى سورة من الغضب الهائل :

ـ إذن ، اخرجوا ! هيا ، اغربوا عن وجهى !

هرول الخدم نحو الباب . وتبدوا عن أطاده ملتفتين إلى الخلف فى وجل مشوب بالخبث ، فصاح فيهم مؤمن من جديد بصوت هادر :

— اخرجوا !!

أطبقت الظلمة تماما .

— ١٢ —

كان شاطىء البحر هادئاً مقفراً ، يخيم عليه صمت لا يعكره سوى صوت الأمواج يتعالى من الأغوار رتيباً مبهماً .

على صخرة عالية فى المؤخرة ، بدا شبح رجل مقنَّع يحمل على كتفه بندقية . تناهى من بعيد صفير مديد خافت ، كما لو كان نداء متفقا عليه .

أجاب الشبح المقنع على الصخرة بصفير مماثل .

على جانب من الشاطىء المقفر وقف جراب الرأى وأبو الخيرات على أهبة الانتظار .

سأل جراب الرأى بصوت يكاد يكون همسا :

— أين هم ؟

أجاب أبو الخيرات :

— فى كل مكان .

سأل الأول :

— كم عدد بنادقنا ؟

— اطمئن . كثيرة .

— أين القارب ؟

ـــ خلف الصخرة ، لايبين من هنا . أصــــدقك القول أنه شيء لم ترعيني مثله من قبل . مخيف !

ـــ كيف الوصول إليه ؟

ـــ عليه أن يجرى على الرمال فى المنطقة المكشوفة ، حوالى عشرين مترا ، فى ضوء القمر ، حتى الصخرة . لايمكن لرصاصهم أن يطوله هناك .

نعقت بومه .

قال جراب الرأى لزميله بصوت غامض :

ـــ كن يقظاً .

ـــ أصبعى على الزناد دائماً .

أخرج الخادم الأول خنجراً من غمده :

ـــ سنأكل ، وسنشرب . رأيت اليـــوم تحت شجرة جرداء ثلاثة غربان حمراء تتناجى ، وتنهش جثة صفراء : عصفورا أردته حصاة . رأيتها تفقأ العينين . مزقت مخالبها الحديدية الصدر المخضب بالدماء بحثاً عن القلب الصغير ، ثم عن أشهى ما فى الجثة الصفراء ، الطحال والأمعاء .

استفسر الخادم الثانى فى قلق :

ـــ أصحيح أن الحرب ستنتهى قريباً ، وأن الصلح سيوقع فى لوزان ؟

ـــ ماذا يقلقك فى هذا ؟ ستبدأ حرب جديدة هنا أو هناك ، فى أى مكان ، والأمر سيان .

شحذ خنجره ، وأردف يقول بلهجة العارف للأمور :

ـــ هذا مؤكد فى كل زمان .

لمع خنجره إذ رفعه فى ضوء القمر . هز رأسه واثقا مما يقول :

— ستقع عصافير كثيرة ، بل نسور وحدآن ، وتمتلىء الوديان بالجيف .
قال أبو الخيرات وقد انشرح صدره :
— ستمتلىء بطوننا ، ونحيا فى أمان .
بعد برهة قال جراب الرأى فى صوت رزين . كان كمن يملى نبوءة ، رؤيا كابوسية ، حلما مهولا من أحلام البشر القدامى :
— رأيت الجراد يغطى الأفق ، يظلم الشطئان ، يحط على الزرع . والخزان لم يقو على كبت غرائزه فثار ، واكتسح أمامه الحطام والاشلاء .
استفسر الخادم الثانى الأمر بلهفة :
— رأيتها تطفو على الأمواج ؟
هز الخادم الأول رأسه بالإيجاب ، ومضى فى روايته :
— الأمواج السود آتية . رأيتها تحجب الأفق . تقتلع البيوت ، وتغرق الوديان .
أخفض صوته ، كمن يدلى بأسرار خطيرة :
— والناس تفر أمامها نحونا ، كالجرذان . انظر ؟
امتلأ الشاطىء بحشود من الناس المذعورة تجرى وتتدافع متزاحمة كما لو كانت مطاردة بخراب مهول ، تولول وتنظر خلفها ، وتتخبط ، وتفر مبتعدة .
ثم خفتت الجلبة ، وعم الصمت المطبق من جديد .
نعقت البومة .
ثم خيم الصمت من جديد .
استطرد الخادم الأول يقول :

ـ أرأيت ؟ الخير آت . الخير آت. الدنيا بخير ، طالما الطوفان آت .
الطوفان آت والدمار .

يجذب الخادم الأول زميله من ذراعه ، ويمضيا مبتعدين يتجاذبان أطراف الحديث ، فلقد كانت لديهما بعض الأعمال التمهيدية عليهما أن ينجزاها .

— ١٣ —

انبسط ضوء القمر على رمال الشاطىء الصفراء .

أقبل مؤمن يجذب نوارة من يدها برفق. كانت تحمل في يدها الأخرى صرة ثياب .

بدا عليها التردد .

قالت :

ـ أليس الأفضل أن نذهب إليهم ونسوى الأمر ؟

ـ هذا صعب . انهم يشغلون مناصب قوية .

قالت نادمة :

ـ أرأيت ؟ أنا العقبة .

ـ لو كان الأمر سهلا لما كان للرحلة كل هذه الأهمية . لا تخش شيئاً . أمور مثل هذه لعب أطفال بالنسبة لى .

ظل ضميرها يؤنبها :

ـ اذهب وحدك . لاتخش على .

التفت إليها مؤمن ، وقال بلهجة آمرة :

ـــ ستنحنين ، وتكتمين أنفاسك ، وتجرين . سنجتاز نور القمر إلى الظلمة . هناك الأمان .

استطرد مهوّناً :

ـــ سيكون كل هذا ذكرى طريفة عندما نصل إلى القارب .

توقفت نوارة عجلة :

ـــ قل لى ، هل هو صواب هـــذا الذى نفعله ؟ . . أحس بقبضة من الجرانيت تعصر قلبي .

انقبض صدره لحظة . ثم قال كما لو كان ينفض عن خياله شبحاً :

ـــ انسى كل شيء . يبدو كما لو كانت كل السحب قد مضت وولت .

أمسكت نوارة بيده بغتة،وقد ارتسم على وجهها الذعر .

سألها بصوت متوتر :

ـــ ما بك ؟

تنهدت نوارة :

ـــ لا أدرى . خيّل إلى . . .

ابتعد عنها مؤمن . أجال بصره فى أرجاء المكان منقباً .

جرت نواره ، والتصقت بكتفه :

ـــ لا تبتعد عنى .

التفت إليها ، وربت على خدها :

قال لها مبدداً مخاوفها :

ـــ لم يحدث شيء . أنا بجوارك . إنه صمت القبور .

ارتاعت نوارة لسماع الكلمة :

ـــ لا . . لاتنبس بها !

استدركت . استجمعت هدوءها :

ـــ سامحنى . ليس من السهل على امرأة مثلى أن تحتفظ بثباتها فى ليلة كهذه .

ـــ الذنب ذنبى لم تُخلقى لمثل هذه المواقف .

ـــ ولا أنت ، أيها المخلوق الوديع النبيل .

تنهدت نوارة ، وارتعشت شفتاها :

ـــ كم سيكون الأمر جميلا أن نبدأ كل شىء من جديد،أن نستحيل أناساً آخرين .

أغمضت عينيها . رفعت رأسها إلى السماء . تطاير شعرها مع نسمات البحر :

ـــ وددتُ أن أصحو ذات صباح وقد نسيت من أنا ، وأيامى كلها،ما بَعُدَ منها وما دنا . وددت أن أصحو وقد نسينى كل من يذكرنى ، كل من يلوك سمعتى ويعصرنى .

ملأت صدرها بالهواء الرطب . فتحت عيناها . انعكست الأمواج البيضاء فيهما . ثم عادت وأطبقت جفنيها البنفسجيين ، وراحت فى صلواتها :

ـــ آه لو أصحو ذات يوم وقد نسيتهم أنا . وددت أن أصحو ذات صباح وقد بدأتُ كل شىء من جديد . تلك الأوراق ما كنت أمزقها . ذلك الباب ما كنت أقربه ، ولا أتطلع إليه ، حتى من بعيد .

ربت مؤمن على شعرها . أخذ يدها برفق ، وجلسا على الأرض متقاربين .

قال لها :

ـــ أصبحنا شخصين جديدين من هذه اللحظة . ألا ترين ؟ بعد كل الذى

حدث عوالم جديدة انفتحت . نور جديد أضاء ، ورأينا الحياة لأول مرة معاً ، معاً . ألا يعنى كل ذلك شيئاً بالنسبة إليك ؟

لم تستطع نوارة أن تجاريه فى تفاؤله :

ــ لكن ثمة ظلا بقى فى هذه الأنوار .

ــ اطردى أوهامك . لم تعد تنفعنا الآن . اننا نرحل ونتركها .

أجال بصره حوله ، ومضى يقول :

ــ وداعاً ، أيتها الكلمات الجوفاء ، أيتها السخافات والأكاذيب . وداعاً . أيتها الأفكار العطنة . أيتها العيون التى تحدق فى الظلمات ، أيتها الهمسات التى تبعث الرعدة فى الأوصال ، أيتها الشهقات المختنقة فى السراديب . وداعاً ، أيتها الأوهام والخيالات ، أيتها القبلات المسمومة ، أيتها العطور المحرمة المسكرة ، أيتها اللآلىء المزيفة . وداعاً . وداعاً .

بعد برهة من الصمت تطلعت نوارة إليه بنظرات متوسلة :

ــ سؤال أخير ، ولتغفر لى . هل لى الحق فى أن أتبعك ؟

ــ فعلنا الخير ، ولم نؤذ أحداً . العالم كله لنا .

قالت نوارة شاردة اللب :

ــ لا أدرى . فى أعماق شبح يعترض طريق .

ــ المسئوليات خلفناها وراءنا . لنرحل . .

ثم صاح فيها :

ــ أتسمعين ؟!

تمالك هدوءه :

ــ صدقينى . الحقيقة الوحيدة الآن حبنا .

زعقت بومة . مزق صوتُها السكونَ .

التصقت الأخت بأخيها ، وتشبثت به :

— أين ستذهب ، يامؤمن ؟!

— هناك ، إلى الشاطىء الآخر ، عبر البحر الأزرق ، حيث كانت الجنة يوماً ما .

— هل سنجد الجنة ، نحن أيضاً ؟

— أنا وجدتها في عينيك ، في صوتك ، في عبير شعرك . . .

— أسكت . لا تتحدث هكذا . لم نصبح سادة بعد . البنادق لا زالت في طريقنا .

قال مؤمن بانفعال :

— ستون متراً تفصلنا عن حياتنا الجديدة . أريد شيئاً واحداً في هـــذه اللحظة : أن أحيا ، معك ، إلى جوارك .

انخفض صوته إلى حد الهمس :

— وإلى الأبد .

خيمت برهة صمت .

— أتعرف ماذا أقول لنفسي ؟ المحبون دائماً على حق . عندي أنك لن تتركني ، يامؤمن .

— ستقبني عنباً بين الأشجار ، ونحيـــا في صمته ، مثل شرنقتين . لن يكون لنا سوى حبنا .

— لن يُستطاعَ منك أن تضرب ، ولا من الآخرين أن يضربوك .

هم مؤمن أن يقبلها .

دوت فى سكون الليل طلقة لا يُعرفُ مصدرها .

خر صريعاً بين ذراعى أخته . تلوى ألماً ، وندت عنه آهة مكتومة . أنشب أصابعه فى صدره ، كما لو كان يريد أن ينتزع الرصاصة من ضلوعه .

دخل الخدم . وتجمعوا فى أحد الأركان يرقبون ما يحدث .

صرخت نوارة :

— الدماء ، الدماء من جديد !

شقت قميص مؤمن عند الصدر ، وانكبت عليه تحاول أن تسدى له العون فى لحظته الأخيرة .

بكت بحرقة .

دخل الأب . وقف بعيدا يتابع ما يدور فى صمت .

غاض الضوء من الوجود .

لطمت نوارة ، وولولت ، وركعت تخاطب الجثة الحبيبة بحرقة وألم :

— أين أنت ؟ لماذا ايقظتنى ؟ كنتُ بلا حب وحيدة ، ثم أصبحتَ لى ، وها أنت بين يدى جثة هامدة . كنت أحيا فى عزلتى قانعة ، وها أنا أحيا معك إلى الأبد فى الأسى والتحيب .

تناولت وجهه الشاحب بين راحتيها فى حنان :

— ألا تسمعنى ؟ ألن نذهب إلى الشاطئ الآخر ؟ مؤمن ؟ ! أنسيت الزهور ، والخبأ الذى سنبنيه ؟

خيمت برهة من الصمت الثقيل .

وضعت نوارة رأس مؤمن فى حجرها . ربتت على شعره برفق .

غمرهما ضوء القمر . وبدا الوجود ، كما لو كان قد خلا ممن عداهما .

مضت نوارة ترثى حبيبها :

ــ الجنة موجودة . لاتنس ذلك . أعتقدنا أنها أسطورة ، لكننا أصبحنا نعرف جيدا أنها الحقيقة .

تنهدت :

ــ فقدناها . كنا نطالب الكثير ، ولا يجب أن يطلب المرء الكثير قط .

انحنت . طبعت على جبينه البارد قبلة طويلة .

انسدل على كتفيها شعرها الطويل ، غمر وجهيهما ، كأمواج سوداء تنحدر من شلال شاهق الارتفاع .

خلعت من أصبعها خاتمها . وضعته فى أصبع الرجل الذى كان قلبه عامرا بالأمل منذ بضع لحظات فحسب .

قالت له بصوت مرتجف :

ــ يا حبيبى ، مهما كانت الحياة بعد الموت ، أتمنى لك أطيب التمنيات فى عيد ميلادك .

رفعت رأسها . بدت متصلبة النظرات ، جامدة الملامح ، وقد جفت الدموع فى مآقيها ، وملأت التجاعيد وجهها . ثم فجأة أيضا ، شعرت بأن السنين قد تراكمت عليها ، وتقدم بها العمر .

خيمت برهة صمت ثقيل .

كان هدير البحر يحكى من بعيد قصة الرباط الأبدى بين الموج والصخور ، وذرات الرمال التى ترقد على الشط تحلم بماضيها ، وبعلاقة ضارية أحالتها إلى رمال . محظوظة هى الأمواج . لاتعرف خطيئة . لاتنتظر موتا ، ولا قاتلا تتوقع ، بل زرقة أبدية ، وقبلات الرياح .

— ١٤ —

قال الخادم الأول بصوت خفيض :

ـــ لم يحسن التصرف . جرى فى النور . رأوه ، وضربوه .

بصق الخادم الثانى ، وعلق على ذلك بازدراء :

ـــ كان يريد أن يرحل ، هيـــه ؟ ! بأى قارب ، لا أعرف ! رومانتيكى حالم . نواح كثير وعزيمة واهنة .

ـــ والأخرى تعشق كل ماهو قديم . هذا نوع من الهرب أيضاً .

خطا الأب بضع خطوات مقتربا .

رفعت نوارة رأسها . رأته .

توقف .

تطلعت إليه بعينين دامعتين .

قالت له بصوتها انطفأت منه الحياة :

ـــ ماذا تطلب منا ؟ ليس لدينا مانعطيه .

هز الأب كتفيه . وأجاب بصوت ثقيل ، كما لو كان يأتى من جب سحيق :

ـــ ماذا بقى كى أطلب ؟ أنا لا أطلب شيئاً . لم أكن أطلب شيئاً على الاطلاق . حياتى بدأت فى حفرة من الطين ، وشىء يدوى من حولى . شىء أخبرونى فيما بعد أنه طلقات بنادق ، لكننى غير قادر على أن أتذكر كيف وُجِدْتُ ، وما هو الدور الذى ألعبه . أشعر أحيانا أننى على وشك أن أكتشف أمرا جللا ، ثم فجأة يظلم كل شىء من حولى ، وآخذ فى التصرف كأنى فى غيبوبة . وقد أحسست الليلة أن هناك شيئاً ينتظرنى عند نهاية الطريق ، لكننى تبينت كشأنى فى كل مرة أنى كنت واهما .

ـــ كنتَ على حق . ها أنت تنتصر القنديل انطفأ .

طلع القمر من وراء السحب ، تركز نوره الفضى على جثة مؤمن المسجاة على الرمال .

نظر إليها الأب ، وتنهد :

ـــ بل هزمت مرة أخرى . انطفأ القنديل ، لكن الظلمة أضاءت .

خيمت برهة صمت .

استطرد الأب مشيرا إلى الجثة ، مدافعاً عن نفسه :

ـــ أرأيتِ ماذا فعل بى ؟ أبى قتلنى !

سرح بصرها بعيدا . قالت شاردة اللب :

ـــ كان يجب أن يموت ، قبل أن يخدع نساء أخريات .

هز الأب رأسه :

ـــ كان يعشق لعبة الموت حتى العبادة . كان يعلم جيدا أن الموت لا يموت .

أقبل رئيس الخدم ، تتدلى على بطنه سلسلة ساعة ذهبية واضحة للعيان مثل سيده .

انحنى للأب .

سأل :

— والقارب ، ياسيدى ، ماذا نفعل به ؟

أخرج الأب ساعته من جيبه ، ونظر إليها :

— أوشكت اللحظة أن تحين .

ثم صاح بلهجة آمرة ، كما لو كان يريد أن يستمد الشجاعة من صوته :

— حطموه ، حتى لا تبقى وسيلة للنجاة .

انصرف رئيس الخدم ، بعد أن أدى التحية للأب .

اقترب الأب من نوارة . وركع على قدميه إلى جوارها .

بعد برهة صمت ربت على كتفها :

— تريدان أن تكونا معاً ، كما كنتما فى الحياة ، هيه ! وأنا ؟

انخرط فى بكاء خفيض :

— أهون عليك ؟ أنت سلواى وكفنى . ادخرتك لآخرتى . هذا الذى يغسلنى ويدفننى ، أيتها الزوجة التى تبخس حق نفسها . هيا ، معى إلى البيت ، يا حبيبتى .

ذاب الألم فى قلب نوارة ، ولان حديثها :

— أيها المسكين ، أتحنى إلى هذا الحد ؟

تلاشت شراسة العجوز وحماقته . كست قسماته وداعة جذابة ووسامة مفجعة .

قال :

ـــ سيكون مؤمن بانتظارنا هناك ، وسنبدأ كل شيء من جديد ، فها هو قد أصبح منا ، إنه يتأرجح فى قارورة راغباً أن يموت ولا يموت . تطلعى إلى المستقبل بتفاؤل ، فكل شيء يتفتح بعد خمود ، وكل كفاح مضن يبدأ من جديد .

أخذ العجوز بذراع المرأة. انهضها برفق :

ـــ هيا يا ابنتى نعود إلى البيت ، نعد حساء العشاء .

استجابت نوارة ، ونهضت بتثاقل :

ـــ وأجهز لك ماء دافئاً أغسل به قدميك ، وأضعك فى سريرك .

أقفلت راجعة مع الأب بخطى بطيئة :

ـــ وأحكم الغطاء حولك ، فالبرد قاس ، ياعجوزى ، والشتاء يطرق الأبواب .

وضع الأب ذراعه على كتف ابنته ، واستند إليها ، وقد ناء الإثنان بحمل السنين .

أقبل عنقرة . خطا بضع خطوات فى اتجاه الأب ، كما لو كان يريد اللحاق به . ثم توقف ورفع صوته مخاطباً إياه ، وقد أوشك أن يغيب عن الأنظار :

ـــ سيدى ...

توقف الأب . التفت نحو من يناديه .

سأله الخادم مشيراً إلى جثة مؤمن الملقاة على الرمال :

ـــ هل أتلو عليه صلاة ، ياسيدى ؟

أجاب الأب مستنكراً بصوت أجش :

ـــ وهل خُلِقَت الصلوات للآبقين ، يارجل ؟ إنه جيل مشلت مرتاب .

صدق الخادم على كلامه :

ـــ حقاً ، ياسيدى . كانت قتلة شريفة طاهرة لا يستحقها .

مضى الأب وابنته حتى غابا عن العيان .

انقض الخدم على جثة مؤمن كما تنقض النسور الجائعة على جيفة من الجيف .

مقدمة فى غير موضعها

اهتداء بما فعله أستاذنا توفيق الحكيم فى ختام مسرحية « إيزيس » أقول ليست « المرآة والمصباح » مجرد رواية تحكى أحداثا وقعت ، بل هى عمل يعكس رؤيا للوجود فى مرآة مكسورة ، وعلى ضوء مصباح منطفىء أو على أحسن الفروض تتأرجح ذبالته فى مهب ريح لاترحم ، ولكن أليس الفن الحديث والأدب الحديث تبعاً له على هذا النحو ؟ ألا نجد أن أعمال بيكاسو وبراك وجرى والجزار صورفى مرآة مكسورة ؟ ثم ألا تبدو لوحات رووه وكوكوشكا وساذرلاند وندا وسائر التعبيريين أعمالا فى ضوء ذبالة منطفئة يتصاعد منها دخان أسود ؟ ولكن ماذا يُنتظر من الفن الحديث غير ذلك ؟ أن يكون مرآة تعكس صورة الثور الضارى على أنه ملاك رحيم ؟ هل الفن الحديث مرآة تبرز ملامح كل منا كما يحبّ أن يبدو ؟ إذا كان الأمر كذلك فيالها من مضيعة للوقت . إننا نذكر فى هذا المقام جان جينيه فى مسرحيته « الشرفة » حيث يرى كل من زبائن ماخور اسمه « الشرفة » نفسه على مايهوى ، ويحيا أحلام عظمة زائفة .

تحكى « المرآة والمصباح » أشجان إنسان هذه السنوات الغريبة التى تجهّز فيها القنابل للدمار وتُبنى السفن للافلات إلى الفضاء ، ولهذا نلتقى فى المرآة

والمصباح » بأب يشد إلى الأرض . يريد أن يرى هلاك الأشرار وبقاء العادلين، وعندما يطلع الإبن لايتورع عن قتله ذلك الأب هو مركز الكون الأسرى الذى هو صورة مصغرة للكون الوجودى ، وقد خرج الأب لينقذ خرافه الضالة ، فاسترد الابنة ، أما الآخر فقد أهلكه .

وقد حاولت أن أتخلص فى « المرآة والمصباح » من السرد الروائى واستعنت بالأسلوب المسرحى فى رواية قصة . كما انصرفت عن « الموضوع المحلى » وقد كسرت بوصلتى وبسطت اشرعتى فى مهب الريح ، فقادتنى سفينتى إلى الشمال القصى لأجد فى حياة أشهر مصوريه أدفارمولش ماثبت خيالاتى. وقد زادها مسرح مواطنه أوجست سترنبرج تأججاً بحواره المزلزل الذى لازال يتردد فى أعماق مختلطاً بحوار الفريد جارى وهارولد بينتر تحررت . من الحوار الجدلى الذى يقوم على مقارعة الحجة بالحجة ، ولجأت إلى الحوار اللامنطقى الذى ينضح بالعنف المسيطر على العلاقات الإنسانية ، استخدمت الكلمات بالأخص لتؤلم لا لتفسر ، ولتثير القلق الذى ينفثه الشعراء فى قصائدهم .

وأعود إلى الفن الحديث ممثلا فى أداموف ويونيسكو وأوديبرتى لأشير إلى شرعية تلك التحولات التى تمتلىء بها « المرآة والمصباح » سواء فى الحوار أو الشخوص أو الأحداث . فالأب ورئيس الخدم والرسول والأستاذ كرم ، ونوارة الام ونوارة الابنة ونوارة العشيقة من متطلبات التيار الحديث فى الفن والادب ، ومن مكتسباته التى يجب أن يضعها القارىء موضع الاعتبار .

وأكتفى بأن ألفت النظر إلى أخطر من فى الرواية ، وهم الخدم . إنهم يكشفون أبعادا خفية فى سلوك أسيادهم، ويستترون وراء العديد من الاقنعة الواضحة وغير الواضحة . ينفذون إرادة الاب ، لكنهم يعملون أيضا لحساب من يدفع ، وإن اقتضى الامر فهم مستعدون لبيع سيدهم .

والخدم كثيرون فى الحياة وفى الطبيعة . انتشارهم فى المدن أكثر من انتشارهم فى غيرها . تجدهم مثلا على المقاهى ، وأمام دور السينما إذا ماعرضت أفلاما مثيرة ، وفى المحافل يصفقون ويهللون . أسماؤهم مرصوصة فى كشوف العلاوات والمنح . يتلقون نعائم التقدم بلا عناء ، ولكنهم على استعداد لهدم كل تقدم بلا اكتراث فى سبيل علبة من السجائر ، أو شريحة اضافية من الشواء .

صمم الغـــلاف الفنان حسن سليمان

وقد تم طبع الكتاب فى ١٩٦٨/١٢/١٧

مطبعة الجبلاوى

٢٠٩ شارع الترعة البولاقية

